الحياة الدّنيا وحرصهم الشّديد على متعها .

وانظر إلى لفظة « حياة » الّتى جاءت نكرةً فى القول : ﴿ ولتجدنّهم أحرص النّاس على حياة ﴾ والمراد : لتجدنّهم أحرص النّاس على أىّ حياة . فهمّ بنى إسرائيل أن يحيوا وأن يطول بهم العمر وألاّ يموتوا ، وليس يهمّهم وراء ذلك أن تكون حياةً عزيزة أو ذليلة ، كريمة أو مهينة . وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ ضُرِبَتْ عليهم الذّلّة أينما ثقفوا إلاّ بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس وباءو بغضبٍ من الله وضُرِبت عليهم المسكنة . ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حقّ ، ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون ﴾ وفى مقابل الذّلّ الّذى يملأ أعماق القوم ويملأ نفوسهم وإن لم يكونوا فقراء وكانوا ذوى سلطة ، هم ليس لطغيانهم حدود حينما تكون لهم دولة ويكون لهم نفوذ . وإنّ أوضح الأدلّة على ذلك تستطيع أن تتبيّنها من الواقع . انظر إلى حال هؤلاء الأفراد الّذين يعبّرون — غير مضطرّين — بكلّ وسائل التّعبير ، عن الذلّ المتمكّن منهم ، والهوان المسيطر عليهم ، والمسكنة الّتى ضربت عليهم . وانظر فى المقابل إلى طغيان الدّولة الآثمة الّتى قامت على أجزاءٍ عزيزةٍ اقتطعتها من ديار الإسلام فى فلسطين وما يجاورها ، والّتى طردت سكّانها الأصليّين وشرّدتهم وقتّلتهم ولا زالت تطارد الباقين وتشرّدهم وتقتّلهم بقصد القضاء التّامّ على ذلك الشّعب المسلم كيلا يطالب أحدٌ باستعادة الحقّ السّليب المغتصب . وإنّ واقع اليهود المشاهد فى كلّ زمانٍ ومكانٍ ، حينما يكونون فى موطن الضّعف أو القوّة ، ليقوّى ما أجمعت عليه آراء المتعمّقين فى دراسة نفسيّات القوم ، وما قتلوه علمًا ، على حدّ تعبير بعضهم الّذين عايشوا هذا الجنس من النّاس ولازموه عن كثب ، من كون ذلّ القوم وهوانهم ليس له وراءٌ فى الذّلّ والهوان حينما يكونون قلّةً وحينما لا تكون الكلمة لهم والسّلطة فى أيديهم ، ومن كون طغيان القوم وجبروتهم ليس عليه من مزيد حينما يكونون كثرةً وحينما تكون الدّولة لهم والسّلطة فى أيديهم . وهذه النّفسيّة الملتوية الّتى صوّر بعض جوانبها الشّاعر الحكيم[2] .

---

(١) سورة آل عمران ١١٢ .

(٢) ديوان المتنبّى ١ / ٢٨٨ وانظر الحيوان للجاحظ ٦ / ٧١ ، ٧٢ « الكبر فى الأجناس الذّليلة » .

وإن أنت أكـرمت اللّـئيم تمرّدا

هذه النّفسيّة المعقّدة الّتى سبر القرآن الكريم أغوارها وكشف أستارها ، هى السّبب وراء كلّ الويلات الّتى تحلّ بالإنسانيّة بسبب هذا الجنس من النّاس ، وهى السّبب وراء كلّ النّكبات الّتى ترتدّ إليهم هم أنفسهم وتلتفّ عليهم . وليس تاريخ القوم سوى سلسلةٍ من الويلات الّتى أنزلوها بالبشريّة ، وسلسلة من النّكبات الّتى ارتدّت إليهم وحاقت بهم . ويعتبر كلّ ذلك مصداقًا لإمهال الله تعالى لهم وإمدادهم جلّ وعلا استثناءً — وذلك فى حال عزّهم — بحبلٍ منه جلّ وعلا وحبلٍ من النّاس وقد قال تعالى[1] : ﴿ ضربت عليهم الذّلّة أينما ثُقِفوا إلاّ بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس ﴾ كما يعتبر ذلك مصداقًا لقوله عزّ من قائل[2] : ﴿ وإذ تأذّن ربّك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إنّ ربّك لسريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ .

وبعد أن دخل الّذين أشركوا فى النّاس الّذين يفوقهم جميعًا بنو إسرائيل فى حرصهم على حياة ، ينصّ على الّذين أشركوا بالذّات من باب عطف الخاصّ على العام لأنّ الّذين أشركوا مضرب المثل فى الحرص على الحياة الدّنيا لأنّهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت أصلاً . وكأنّ الآية الكريمة تريد أن تقول إنّك لن تجد من يفوق اليهود فى الحرص على الحياة ، أىّ حياة .

والجزئيّة الكريمة الثّانية لا تستثنى أحدًا من اليهود وتبيّن السّبب الحقيقىّ وراء حبّهم للحياة وكرههم للموت . ﴿ يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنةٍ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر ﴾ فكلّ واحدٍ من اليهود يتمنّى لو أنّه طال به العمر وامتدت به الحياة أقصى امتداد ولو كان الطّول والامتداد ألف سنة . ومع أن « لو » مصدريّة بمعنى أن ، فإنّ لو تظلّ قادرةً على الإيحاء بالتّمنّى وعليه يكون القول : ﴿ يودّ أحدهم لو يعمّر ﴾ مشتملاً على كلٍّ من الودّ بمعنى الحبّ للتّعمير والتّمنّى . وحينما يتمنّى كلّ فردٍ من اليهود أن يعمّر عمر نوحٍ عليه السّلام ، فذلك دليل على عشق القوم للحياة الدّنيا واستحواذها على اهتمام كلّ فردٍ منهم .

---

(١) سورة آل عمران ١١٢ (٣) سورة الأعراف ١٦٧ .

ويبيّن الشّق الثّانى من الجزئيّة الكريمة السّبب الحقيقىّ وراء حبّ الحياة وبغض الموت . أمّا هذا السّبب فهو أنّ طول بقائهم فى الحياة الدّنيا يعنى ابتعادهم عن عذاب الله تعالى الّذى ينتظرهم بعد الموت لأنّهم أعلم خلق الله تعالى بسوء أعمالهم . وكأنّ الواحد منهم يظنّ أنّه حينما تطول به حياة فإنّه سيكون بمأمنٍ من العذاب بعد الموت ، وكأنه غفل عن كون نفسه ذائقة الموت حتمًا مهما طالت به حياة . وما دام الموت مصير كلّ واحدٍ ، فذلك معناه أنّ جزاء أعماله سيصادفه بعد موته ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشرّ « وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر » والمعنى كما مرّ بنا : وما هذا المتمنّى أن يعمرّ ألف سنة بمزحزحه ومبعده ومنحّيه من عذاب الله تعميره . وانظر إلى القول « بمزحزحه » وما فى لفظة « زحزح » من تكرار لحرفى الزّاى والحاء ممّا يصحّ أن يفهم معه محاولات المتمنّى المتكرّرة واجتهاداته المتوالية فى تحاشى العذاب وتفادى العقاب . وأنّى له شيءٌ من ذلك « ذلك بما قدّمت أيديكم وأنّ الله ليس بظلاّمٍ للعبيد »[1] .

وتقرّر الآية الكريمة فى التّذييل ﴿ والله بصيرٌ بما يعملون ﴾ أنّ الله سبحانه وتعالى بصيرٌ بما يعمل بنو إسرائيل فى هذه الحياة الدّنيا . إنّه ليس شيءٌ فى هذه الحياة بخافٍ على الذّات العليّة ، وإن حرص صاحب الشّىء على إخفائه واجتهد . إنّ الله تعالى بصيرٌ بكلّ شيءٍ مبصَرٍ فى حقّنا نحن البشر أو غير مبصر ، ظاهرٍ أو مضمر ، معلن عنه أو خفىّ . وما أكثر أعمال بنى إسرائيل السّيّئة الّتى يستحقّون بسببها سوء العذاب ، والّتى يكرهون من أجلها الموت ويحبّون طول الحياة ، أىّ حياة .

الآيــة رقــم (٩٧)

قال تعالى : ﴿ قل من كان عدوًّا لجبريل فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله مصدّقًا لما بين يديه وهدًى وبُشْرى للمؤمنين ﴾ .

سبب النّزول .

---

(١) سورة آل عمران ١٨٢ .

يقول الطّبرىّ[١] : « أجمع أهل العلم بالتّأويل جميعًا على أنّ هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بنى إسرائيل إذ زعموا أنّ جبريل عدوٌّ لهم وأنّ ميكائيل ولىٌّ لهم . ثمّ اختلفوا فى السّبب الّذى من أجله قالوا ذلك . فقال بعضهم إنّما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرةٍ جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ فى أمر نبوّته » « وقال آخرون : بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرةٍ جرت بين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبينهم فى أمر النّبىّ ﷺ »[٢] وقد ذكر الطّبرىّ مجموعةً من الرّوايات بشأن هذين الرّأيين[٣] وجاء فى تفسير القرطبى[٤] فى سبب نزول الآية : « أنّ اليهود قالوا للنّبىّ ﷺ : إنّه ليس نبىٌّ من الأنبياء إلاّ يأتيه ملكٌ من الملائكة من عند ربّه بالرّسالة والوحى فمن صاحبك حتّى نتابعك ؟ قال : جبريل . قالوا : ذاك الّذى ينزل بالحرب وبالقتال . ذاك عدوّنا . لو قلت : ميكائيل الّذى ينزل بالقطر وبالرّحمة تابعناك . فأنزل الله الآية إلى قوله : للكافرين . أخرجه التّرمذىّ » وجاء فى صحيح البخارىّ بشأن الآية الكريمة أنّ النّبىّ ﷺ قرأ الآية حينما أخبره عبد الله بن سَلاَم — الّذى سمع بقدومه ﷺ إلى المدينة فجاءه — حينما أخبره بأنّ جبريل عليه السّلام عدوّ اليهود من الملائكة[٥] .

وهذه هى إحدى روايات الطّبرىّ بشأن الرّأى الآخر الّذى يذهب إلى أنّ الآية نزلت من أجل مناظرة جرت بين عمر رضى الله عنه وبين اليهود يقول[٦] : « عن الشّعبىّ قال : نزل عمر الرَّوْحاء[٧] فرأى رجالاً يبتدرون أحجارًا يصلّون إليها فقال : ما هؤلاء؟ قالوا : يزعمون أنّ رسول الله ﷺ صلّى ههنا فكره ذلك وقال : إنّما رسول الله ﷺ أدركته الصّلاة بوادٍ فصلّى ثمّ ارتحل فتركه ثمّ أنشأ يحدّثهم فقال : كنت أشهد

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٤١ وانظر الكشّاف ١ / ٢٢٩ والبحر المحيط ١ / ٣١٩ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٤٣ وانظر ص ٣٤٣ — ٣٤٥ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٤٢ — ٣٤٥ (٤) ص ٤٢٧ .

(٥) انظر صحيح البخارى ٦ / ٢٣ (٦) تفسير الطبرى ١ / ٣٤٣ .

(٧) الرَّوحاء من عَمَل الفُرْع على نحو من أربعين يومًا ، أو ستّة وثلاثين ، أو ثلاثين . وهو موضعٌ بين مكّة والمدينة . وسُئِل كثيرٌ لِمَ سُمّيت الرّوحاء روحاء فقال : لانفتاحها ورَواحها . والرَّوح والرّاحة من الاستراحة . وأظنّه قبل للبقعة روحاء أى طيّبة ذات راحة . انظر ياقوت « الرّوحاء » .

اليهود يوم مِدْراسهم فأعجب من التّوراة كيف تصدّق الفرقان ومن الفرقان كيف يصدّق التّوراة . فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا ابن الخطّاب ما من أصحابك أحدٌ أحبّ إلينا منك . قلت : و لم ذلك ؟ قالوا : إنّك تغشانا وتأتينا . قال : قلت إنى آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدّق التّوراة ومن التّوراة كيف تصدّق الفرقان . قال : ومرّ رسول الله ﷺ فقالوا : يا ابن الخطّاب ذاك صاحبكم فالحق به قال : فقلت لهم عند ذلك : أنْشُدُكم[1] بالله الّذى لا إله إلاّ هو وما استرعاكم من حقّه واستودعكم من كتابه أتعلمون أنّه رسول الله ؟ قال : فسكتوا . قال : فقال عالمهم وكبيرهم إنه قد عظّم عليكم فأجيبوه . قالوا : أنت عالمنا وسيّدنا فأجبه أنت . قال : أما إذ أنشدتنا به فإنّا نعلم أنّه رسول الله . قال : قلت ويحكم ، أى هلكتم . قالوا : إنّا لم نهلك . قال : قلت كيف ذاك وأنتم تعلمون أنّه رسول الله ﷺ ثمّ لا تتبعونه ولاتصدّقونه . قالوا : إنّ لنا عدوًّا من الملائكة وسِلمًا من الملائكة وأنّه قُرِن به عدوُّنا من الملائكة . قال : قلت ومن عدوّكم ومن سلمكم قالوا عدوّنا جبريل وسِلْمنا ميكائيل . قال : قلت : وفيم عاديتم جبريل وفيم سالمتم ميكائيل . قالوا : إنّ جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتّشديد والعذاب ونحو هذا . وإنّ ميكائيل ملك الرّأفة والرّحمة والتّخفيف ونحو هذا . قال : قلت وما منزلتهما من ربّهما ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره . قال : قلت فوالله الّذى لا إله إلاّ هو إنّهما والّذى بينهما لعدوٌّ لمن عاداهما وسِلْمٌ لمن سالمهما . ما ينبغى لجبريل أن يسالم عدوّ ميكائيل ولا لميكائيل أن يسالم عدوّ جبريل . قال : ثمّ قمت فاتّبعت النّبىّ ﷺ فلحقته وهو خارج من خُرْفة[2] لبنى فلان فقال لى يا ابن الخطاب ألا أقرئك آياتٍ نزلْنَ فقرأ علىّ : قل من كان عدوًّا لجبريل فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله مصدّقًا لما بين يديه حتّى قرأ الآيات . قال : قلت : بأبى وأمّى يا رسول الله . والّذى بعثك بالحقّ لقد جئتك وأنا أريد أن أخبرك الخبر فأسمعُ اللّطيفَ الخبير قد سبقنى إليك بالخبر » .

عدوًّا : « العين والدّال والحرف المعتلّ أصلٌ واحدٌ صحيح يرجع إليه الفروع كلّها ،

---

(١) يقال : نَشَدَه الله وبالله يَنْشُده ويَنْشِدَه : استحلفه أى سأله وأقسم عليه بالله .

(٢) الخرفة بضمّ الخاء وسكون الرّاء ما يجتنى من الثّمار والفواكه . انظر القاموس .

وهو يدلّ على تجاوزٍ فى الشّىء وتقدّمٍ لما ينبغى أن يقتصر عليه »[١] « العَدْو التّجاوز ومنافاة الالتئام . فتارةً يُعْتَبَرُ بالقلب فيقال له العَداوَةُ والمعاداةُ ، وتارةً بالمشىِ فيقال له العَدْو . وتارةً فى الإخلال بالعدالة فى المعاملة فيقال له العُدْوان والعَدْو . قال : فيسبّوا الله عَدْوًا بغير علم . وتارةً بأجزاء المقرّ فيقال له العُدَواء . يقال : مكانٌ ذو عدواء أى غير متلائم الأجزاء »[٢] و « يقول ابن فارس[٣] » : وأمّا العُدَواء فالأرض اليابسة الصُّلبة ، وإنّما سمّيت بذلك لأنّ من سكنها تعدّاها » .

جبريل : معنى جبر عبد . وإيل اسمٌ من أسماء الله تعالى[٤] وقد تصرّفت فيه العرب على عادتها فى تغيير الأسماء الأعجميّة حتّى بلغت فيه إلى ثلاث عشرة لغة قالوا : جبريل كقنديل ، وهى لغة أهل الحجاز . وهى قراءة ابن عامر وأبى عمرو ونافع وحفص[٥] .

فإنّه : الضّمير فى فإنّه عائدٌ على جبريل[٦] .

نزّله : الضّمير فى نزّله عائدٌ على القرآن لدلالة المعنى عليه . ألا ترى إلى قوله مصدّقًا لما بين يديه وهدًى وبشرى للمؤمنين . وهذه كلّها من صفات القرآن . ولقوله : بإذن الله . أى فإنّ جبريل نزّل القرآن على قلبك بإذن الله[٧] ونحو هذا الإضمار ، أعنى إضمار ما لم يسبق ذكره فيه فخامةٌ لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنّه يدلّ على نفسه ويكتفى عن اسمه الصّريح بذكر شىءٍ من صفاته[٨] .

على قلبك : أىّ بلفظ على لأنّ القرآن مُسْتَعْلٍ على القلب ، إذ القلب سامعٌ له ومطيع يمتثل ما أمر به ويجتنب ما نهى عنه . وكانت أبلغ من إلى ، لأنّ إلى تدلّ على الانتهاء فقط ، وعلى تدلّ على الاستعلاء . وما استعلى على الشّىء يضمن الانتهاء إليه[٩] وخصّ القلب

---

(١) معجم مقاييس اللّغة « عدو » ٣ / ٢٤٩ (٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٣٢٦ .
(٣) معجم مقاييس اللّغة « عدو » ٤ / ٢٥٢ (٤) البحر المحيط ١ / ٤١٧ .
(٥) البحر المحيط ١ / ٤١٧ وانظر معانى القرآن للأخفش ١ / ١٤٠ .
(٦) البحر المحيط ١ / ٣٢٠
(٧) البحر المحيط ١ / ٣٢٠ وانظر الكشّاف ١ / ٢٢٩ .
(٨) الكشّاف ١ / ٢٢٩ (٩) البحر المحيط ١ / ٣٢٠ .

بالذّكر لأنّه موضع العقل والعلم وتلقّى المعارف[١] .

بإذن الله : أى بإرادته وعلمه[٢] وأمره[٣] وتيسيره وتسهيله[٤] يقال : أذن به : علم به . وآذنه أعلمه . آذنتكم على سواء أعلمتكم . ثمّ يطلق على التّمكين . أذن لى فى كذا أى مكّننى منه . وعلى الاختيار : فعلته بإذنك أى باختيارك[٥] .

مصدّقًا لما بين يديه : مصدّقًا لما قبله من الكتب[٦] وما فى لما موصولة[٧] وتصديقه إيّاها موافقة معانيه معانيها فى الأمر باتّباع محمّدٍ ﷺ وما جاء به من عند الله ، وهى تصديقه[٨] « وهدًى : ودليلٌ وبرهان . وإنّما سمّاه الله جلّ ثناؤه هدًى لاهتداء المؤمن به . واهتداؤه به اتّخاذه هاديًا يتبعه ، وقائدًا ينقاد لأمره ونهيه وحلاله وحرامه . والهادى من كلّ شىء ما تقدّم أمامه . ومن ذلك قيل لأوائل الخيل هواديها ، وهو ما تقدّم أمامها . وكذلك قيل للعنق الهادى لتقدّمها أمام سائر الجسد »[٩] .

وأمّا البُشرى فإنّها البشارة . أخبر الله عباده المؤمنين جلّ ثناؤه أنّ القرآن لهم بشرى منه لأنّه أعلمهم بما أعدّ لهم من الكرامة عنده فى جنّاته وما هم إليه صائرون فى معادهم من ثوابه ، وذلك هو البُشْرى الّتى بشّر الله بها المؤمنين فى كتابه ، لأنّ البشارة فى كلام العرب هى إعلام الرّجل بما لم يكن به عالمًا ممّا يسرّه من الخير قبل أن يسمعه من غيره أو يعلمه من قبل غيره[١٠] والبُشْرى ذات علاقةٍ بالبَشَرة وهى ظاهر الجلد[١١] لأنّ السّرور يَبْسُط بشرة الوجه ، ولأنّ النّفس إذا سُرّت انتشر الدّم فيها انتشار الماء فى الشّجر[١٢] .

عرفنا أنّ الآية الكريمة إنّما نزلت فى اليهود الّذين زعموا أنّهم لا يمنعهم من الدّخول فى الإسلام إلاّ كون جبريل عليه السّلام هو صاحب المصطفى ﷺ . وجبريل عدوّهم

---

(١) تفسير القرطبى ص ٤٢٧
(٢) تفسير القرطبى ٤٢٨ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٣٢٠
(٤) الكشّاف ١ / ٢٢٩ .
(٥) البحر المحيط ١ / ٣١٨
(٦) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٤٨ .
(٧) البحر المحيط ١ / ٣٢١
(٨) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٤٧ .
(٩) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٤٨
(١٠) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٤٨ .
(١١) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٤٧
(١٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى ص٤٨ .

لأنّه ينزل بالحرب وبالقتال . ولو كان ميكائيل الّذى ينزل بالقطر وبالرّحمة هو صاحب المصطفى ﷺ لآمنوا وصدّقوا بالمصطفى ﷺ . إنّ جبريل عليه السّلام رسول الله تعالى من الملائكة ، وأمينه فى السّماء على وحيه ، وأحد أوليائه جلّ وعلا ، وإنّ الكفر بأحد الرّسل يلزم الكفر بسائرهم وقد قال تعالى(١) : ﴿ إنّ الّذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ ويريدون أن يتّخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقًّا وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينا ﴾ وقال تعالى(٢) : ﴿ وما نتنزّل إلاّ بأمر ربّك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربّك نسيًا ﴾ وقال تعالى(٣) : ﴿ وإنّه لتنزيل ربّ العالمين . نزل به الرّوح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسانٍ عربّي مبين ﴾ « وقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة قال . قال رسول الله ﷺ : من عادى لى وليًّا فقد بارزنى بالحرب »(٤) لهذا غضب الله تعالى لجبريل عليه السّلام . وها هى ذى الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لليهود الّذين يزعمون أنّ جبريل عليه السّلام عدوٌّ لهم وبالتّالى هم عدوٌّ له ، بأنّ من كان عدوًّا لجبريل عليه السّلام أمين الله تعالى فى السّماء ورسوله بالوحى إلى المصطفين من عباده ، وهو إنّما يفعل ما أمره الله تعالى به ولا يعصيه جلّ وعلا ، ومن ذلك نزوله بالوحى بإذن الله تعالى ، وهذا الفضل الّذى خصّ به جبريل عليه السّلام يستوجب حبّه عليه السّلام لا معاداته كما فعل اليهود ، بأنّ من كان عدوًّا لجبريل عليه السّلام فإنّه عليه السّلام قد نزّل القرآن الكريم على قلبك أيّها الرّسول العظيم والنّبىّ الكريم بإذن الله تعالى وبإرادته جلّ وعلا وعلمه .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل جملة نزّل الّتى فهم منها بعض العلماء أنّها تفيد نزول القرآن مفرّقًا وليس جملةً واحدةً وهو المعنى الّذى تفيده جملة أنزل .

كما يلاحظ عودة الضّمير فى القول : « نزّله » على القرآن الكريم الّذى لم يأت ذكره من قبل فى الآية الكريمة أساسًا ، وفى ذلك تنويه برفيع شأن القرآن الكريم وعظيم منزلته .

---

(١) سورة النّساء ١٥٠ ، ١٥١ (٢) سورة مريم ٦٤ .

(٣) سورة الشّعراء ١٩٢ ــ ١٩٥ (٤) تفسير ابن كثير ١ / ١٣٢ .

كما يلاحظ اختصاص الآية الكريمة القلب موضعًا للقرآن الكريم دون سائر أجزاء الجسد . وفى ذلك كذلك تنويهٌ بشأن القرآن الكريم من جانبين . الجانب الأوّل كون القلب ملك الجوارح تأتمر بأمره وتنتهى بنهيه . وقد جاء فى الحديث عن النّبىّ ﷺ أنّه قال[١] : (ألا وإنّ فى الجسد مضغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسد كلُّه وإذا فَسَدَت فسد الجسد كلُّه ألا وهى القلب) .

والجانب الثّانى هو ما خصّ الله تعالى به هذا الكتاب العزيزَ دون سائر الكتب السّماويّة السّابقة من كونه معجزةً فى ذاته وآيةً تحدّى بها المصطفى ﷺ الثّقلين الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثله أو بعشر سورٍ أو بسورةٍ واحدة . ولكونه فى ذاته آيةً معجزةً تكفّل الله تعالى بحفظه إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض ومن عليها وقد قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ ويسّره جلّ وعلا للذّكر وقد قال تعالى[٣] : ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر ﴾ واقترن بذلك كون القرآن الكريم آياتٍ بيّناتٍ محفوظةً فى صدور الّذين أوتوا العلم ، فلم ينفرد السّطر بحمله كما جرى للكتب السّماويّة السّابقة ، إنّما تعاون على حمله وحده كلٌّ من السّطر والصّدر ، وقد قال تعالى[٤] : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطّه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون . بل هو آياتٌ بيّناتٌ فى صدور الّذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلاّ الظّالمون ﴾ .

ولو أنّا حاولنا من جانبنا أن نحصى حبّات كلٍّ من الجزئيّات الكريمة الثّلاث وقمنا بذكر المحذوف من بعض الجزئيّات فكانت الآية الكريمة بعد ذكر المحذوف فى مثل هذه الصّورة : قل يا محمّد من كان عدوًّا لجبريل عليه السّلام فإنّ جبريل نزّل القرآن الكريم على قلبك بإذن الله مصدّقًا لما بين يديه وهدًى وبشرى للمؤمنين ، لاستطعنا أن نتبيّن أنّ كلاًّ من الجزئيّات الثّلاث تتألّف هى بدورها من ثلاث حبّاتٍ من عقد المعانى وهى على النّحو التالى :

قل يا محمّد ، من كان عدوًّا لجبريل ، فإنّ جبريل .

---

(١) (١) صحيح البخارى ١ / ٢٠

(٢) سورة الحجر ٩ .

(٣) سورة القمر ١٧

(٤) سورة العنكبوت ٤٨ ، ٤٩ .

نزّل القرآن ، « على قلبك ، بإذن الله .

مصدّقًا لما بين يديه ، وهدًى ، وبشرى للمؤمنين » .

فإذا تدبّرنا الجزئيّة الكريمة الثّالثة بفصوص حكمها الثّلاثة ، استطعنا أن نتبيّن بناءً محكمًا للمعانى وترتيبًا عجيبًا لها راعى ترتيبها فى الوجود . فالقرآن الكريم مصدّقٌ لما قبله من الكتب السّماويّة ، وبخاصّةٍ التّوراة والإنجيل ، لأنّ مصدر هذه الكتب واحد هو السّماء ثمّ انفرد القرآن الكريم بحفظ الله تعالى له . ونستطيع أن نتبيّن أنّ هذه الحبّة من عقد المعنى مبكّرةٌ حقًّا ، لأنّ صفة الصّدق إحدى مقوّماته وقد قال تعالى[1] : ﴿ وبالحقّ أنزلناه وبالحقّ نزل ﴾ .

والقرآن الكريم نزل هدًى للمتّقين . وقد قال تعالى[2] : ﴿ إنّ هذا القرآن يهدى للّتى هى أقوم ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجرًا كبيرًا ﴾ فالقرآن الكريم بمثابة النّور الّذى ينير السّبيل والقائد البصير الّذى يهدى إلى الطّريق المستقيم . وواضحٌ أنّ صفة الهداية إلى الطّريقة الّتى هى أقوم ثمرة الاهتداء بالقرآن الكريم فى هذه الحياة الدّنيا الّتى هى دار الحرث ووضع البذور ورعاية الزّرع .

والقرآن الكريم أخيرًا بشرى للمؤمنين الّذين اهتدوا بهديه واستناروا بنوره بأنّ لهم الجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض والّتى أعدّها الله تعالى للمتّقين .

ومن البيّن أنّ حظّ كلّ جزئيّة من ترتيب حبّات المعانى البديع هو الموفور . فلا يمكن أن تكون كلّ جزئيّة إلاّ فى هذه الصّورة الّتى هى عليها . ولا يمكن أن يكون ترتيب حبّات عقدها إلاّ فى هذا النّسق المنضود الّذى جاءت فيه . قال تعالى : « قل من كان عدوًّا لجبريل فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله مصدّقًا لما بين يديه وهدًى وبُشْرى للمؤمنين » .

---

(١) سورة الإسراء ١٠٥

(٢) سورة الإسراء ٩ .

الآيــة رقــم (٩٨)

قال تعالى : ﴿ من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإنّ الله عدوٌّ للكافرين ﴾ .

من كان عدوًّا لله : عداوة العبد لله هى معصيته واجتناب طاعته ومعاداة أوليائه . وعداوة الله للعبد تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه[١] .

وجبريل وميكال : قال الماوردىّ إنّ جبريل وميكائيل إسمان . أحدهما عبد الله ، والآخر عبيد الله ، لأنّ إيل هو الله تعالى ، وجبر هو عبد . وميكا هو عبيد . فكأنّ جبريل عبد الله . هذا قول ابن عبّاس . وليس له فى المفسّرين مخالف[٢] وميكال قد تصرّفت فيه العرب . قالوا : ميكال كمفعال . وبها قرأ أبو عمرو وحفص وهى لغة أهل الحجاز[٣] وجبريل عليه السّلام هو السّفير بين الله وأنبيائه[٤] وميكائيل موكّل بالنّبات والقطر . هذاك بالهدى وهذا بالرّزف كما أنّ إسرافيل موكّل بالنّفخ فى الصّور للبعث يوم القيامة . ولهذا جاء فى الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ كان إذا قام من اللّيل يقول : اللّهمّ ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السّماوات والأرض ، عالم الغيب والشّهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدنى لما اخْتُلِفَ فيه من الحقّ بإذنك إنّك تهدى من تشاء إلى صراطٍ مستقيم[٥] .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ جبريل عليه السّلام أمين الله تعالى فى السّماء على وحيه وسفيره جلّ وعلا إلى رسله فلا سبب موجبٌ لعداوة اليهود جبريل عليه السّلام بل إنّ هذه الخصائص موجبةٌ لحبّه . فإذا أصرّ اليهود على عداوتهم لجبريل عليه السّلام فذلك معناه أنّهم حقيقةً أعداءٌ لله تعالى لأنّه جلّ وعلا هو الّذى ائتمنه على وحيه وبعث به إلى رسله . والآية الكريمة التّالية الّتى نحن بصددها تُبْنى على سابقتها وتُفْصِح بما فُهِم منها من كون

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٢٨ .
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٣٠ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٣١٨ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١٣٢ .
(٥) تفسير ابن كثير ١ / ١٣٢ .

اليهود فى الحقيقة أعداء الله تعالى . وحينما يكون اليهود أعداء الله تعالى بعصيانهم أوامره وكفرهم نغمه فإنّ الله سبحانه وتعالى عدوٌّ لهم ، ومعذّبهم فى الدّنيا والآخرة بسبب كفرهم كما يعذّب جلّ وعلا كلّ كافر .

والآية الكريمة تبدأ بالتّصريح بما فُهِم من الآية الكريمة السّابقة بدلالة الالتزام . فعداوة اليهود جبريل عليه السّلام تعنى فى الحقيقة عداوتهم لله تعالى . ولمّا كان سبب نزول الآيتين الكريمتين موقف اليهود من الملكين الكريمين جبريل وميكائيل ، فقد كان حديث الآية الكريمة شاملاً لهذه الوجهة منعطفًا من بين سائر الملائكة إلى هذين الملكين الكريمين . إنّ من استمرّ على عداوته لجبريل عليه السّلام وهو الّذى لا يعصى الله تعالى ما أمره ولا يفعل إلاّ ما أمره به جلّ وعلا ، فذلك معناه أنّه عدوٌّ لله تعالى ، وإن اتّشحت هذه العداوة ظاهرًا بسواد البغض لجبريل عليه السّلام . وها هى ذى الآية الكريمة تنطلق من تقرير عداوة اليهود لله تعالى إلى عداوتهم للملائكة عموما ، وللرّسل من الملائكة على جهة الخصوص ، متّجهةً أوّل الأمر إلى الملائكة عمومًا ، باعتبار عداوة اليهود لجبريل عليه السّلام رمزًا لعداوتهم للملائكة باعتبار جبريل واحدًا منهم كذلك .

ولمّا كان منطلق الحديث متعلّقًا بجبريل أوّلاً وبميكائيل ثانيًا وهما من الملائكة الّذين اصطفاهم الله تعالى بالرّسالة ، فقد كان حديث الآية الكريمة بعد ذلك عن هذين الملكين على التّوالى منبهًا إلى طبيعة ذلك الحديث فى منطلقه .

ولعلّنا تبيّنا التّرتيب الرّائع الرّائق فى عرض الآية الكريمة فصوص معانيها ، متّجهةً من الأعمّ إلى العامّ ، من الخاصّ إلى الأخصّ . ولعلّنا لاحظنا كذلك دخول جبريل وميكائيل عليهما السّلام فى جنس الملائكة عمومًا ، ودخولهما بعد ذلك فى جنس الرّسل ، من الملائكة ، خصوصًا . ثمّ كان النّصّ على اسميهما وذلك من باب عطف الخاصّ على العام إشادةً بذكرهما وتنويهًا برفيع شأنهما .

وحينما يكون اليهود وغير اليهود أعداءً لله تعالى ولملائكته الّذين لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولجبريل وميكائيل عليهما السّلام من بين الملائكة

والرّسل الكرام ، فإنّ الله سبحانه وتعالى الغنيّ الحميد عدوٌّ للكافرين ، المنكرين للحقّ الجاحدين للنّعم . إنّهم يستحقّون فى هذه الحياة الدّنيا الخزى والذّلّ والهوان . ويستحقّون فى الآخرة أليم العذاب وشديد العقاب فى النّار الّتى وقودها النّاس والحجارة والّتى أعدّها الله تعالى للكافرين .

ومع أنّ لفظة الرّسل هنا متّجهةٌ أساسًا إلى الرّسل من الملائكة ، فإنّها وراء ذلك يصحّ أن تتّجه إلى الرّسل من البشر وتشملهم بدلالة الالتزام ، وبخاصّة خاتمهم وأشرفهم محمّد ابن عبد الله ﷺ . وقد كان اليهود أعداءُ جبريل عليه السّلام أعداءه كذلك عليه الصّلاة والسّلام . قال عزّ من قائل : ﴿ من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإنّ الله عدوٌّ للكافرين ﴾ . وبشأن لفظ الجلالة المصرّح به يقول الطّبرىّ(١) : « وأمّا إظهار اسم الله فى قوله : فإنّ الله عدوٌّ للكافرين وتكريره فيه وقد ابتدأ أوّل الخبر بذكره فقال : من كان عدوًّا لله وملائكته فلئلاّ يلتبس لو ظهر ذلك بكناية(٢) فقيل فإنّه عدوّ للكافرين على سامعه مَنِ المعنىّ بالهاء الّتى فى فإنّه . أألله أم رسل الله جلّ ثناؤه أم جبريل أم ميكائيل إذ لو جاء ذلك بكناية على ما وصفت فإنّه يلتبس معنى ذلك على من لم يوقف على المعنىّ بذلك لاحتمال الكلام ما وصفت » « كما قال الشّاعر :

لا أرى الموت يسبق الموتَ شيءٌ ... سَبَقَ الموتُ ذا الغنى والفقيرا

وقال الآخر :

ليت الغراب غداة ينعب دائبًا ... كان الغرابُ مقطّع الأوداج

وإنّما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره وإعلامهم أنّ من عادى وليًّا لله فقد عادى الله ، ومن عادى الله فإنّ الله عدوٌّ له . ومن كان الله عدوّه فقد خسر الدّنيا والآخرة كما تقدّم الحديث : من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالمحاربة . وفى الحديث الآخر : إنّى لأثأر لأوليائى كما يثأر اللّيث الحَرِب(٣) وفى الحديث الصّحيح : من كنت خصمه خصمته »(٤) .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٤٩

(٢) الكناية : اسم الضّمير .

(٣) اللّيث الحَرِب ، يفتح الحاء وكسر الرّاء : الشّديد الغيظ .

(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١٣٣ ويقال : خصمه : إذا غلبه فى الخصومة .

الآيــة رقــم (٩٩)

قال تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليك آياتٍ بيّنات وما يكفر بها إلاّ الفاسقون ﴾ .

سبب النّزول .

« عن ابن عبّاس قال . قال ابن صوريا القطيونى لرسول الله ﷺ : يا محمّد ، ما جئتنا بشيءٍ نعرفه وما أنزل الله عليك من آيةٍ بّينةٍ فنتبعك بها فأنزل الله عزّ وجلّ : ولقد أنزلنا إليك آياتٍ بيّناتٍ وما يكفر بها إلاّ الفاسقون »(١) .

« الكُفْر فى اللّغة سَتْر الشّىء . ووصف اللّيل بالكافر لستره الأشخاص ، والزّرّاع لستره البذر فى الأرض وليس ذلك باسمٍ لهما ..... والكُفْران فى جحود النّعمة أكثر استعمالاً ، والكُفْر فى الدّين أكثر والكُفور فيهما جميعًا ..... وقد يقال كفر لمن أخلّ بالشّريعة وترك ما لزمه من شكر الله عليه . قال : من كفر فعليه كفره . يدلّ على ذلك مقابَلَتُه بقوله : ومَنْ عمل صالحًا فلأنفسهم يمهدون . وقال : وأكثرهم الكافرون . وقوله : ولا تكونوا أوّل كافرٍ به ، أى لا تكونوا أئمّةً فى الكفر فيُقْتدىَ بكُم . وقوله : ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . عُنِىَ بالكافر السّاتر للحقّ فلذلك جعله فاسقا : ومعلومٌ أنّ الكفر المُطْلق هو أعمُّ من الفِسْق ، ومعناه من جحد حقّ الله فقد فسق عن أمر ربّه بُظلْمه »(٢) .

« فَسَق فلانٌ خرج عن حَجْر الشّرع وذلك من قولهم : فسق الرُّطب إذا خرج عن قِشْره وهو أعمّ من الكفر(٣) والفسق يقع بالقليل من الذّنوب وبالكثير، لكن تعورِف فيما كان كثيرا . وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشّرع وأقرّبه ثمّ أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه . وإذا قيل للكافر الأصلىّ فاسقٌ فلأنّه أخلّ بحكم ما ألزمه العقل

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٥٠ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ١٣٣ وتفسير القرطبىّ ص ٤٣٠ والكشّاف ١ / ٢٣٠ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٤٣٤ .

(٣) ذهب الرّاغب فى مادّة « كفر » إلى أنّ الكفر المطلق هو أعمّ من الفسق .

واقتضته الفِطْرة »[1] .

بيّنت الآيتان الكريمتان السّابقتان أنّ عداوة اليهود لجبريل عليه السّلام لا سبب لها ولا باعث عليها سوى انقيادهم لهوى أنفسهم الأمّارة بالسّوء وتسويل الشّيطان الرّجيم لها، لأنّ ما خصّه الله تعالى به يدعو إلى محبّته لا إلى عداوته. وحينما يصرّ اليهود على عداوتهم لجبريل عليه السّلام فذلك معناه أنّهم أعداء الله تعالى حقًّا . وما الّذى يُنْتظر من اليهود حينما يزعمون أنّهم لا يتّبعونه عليه الصّلاة والسّلام لأن جبريل عليه السّلام صاحبُه من الملائكة ؟ الّذى ينتظر هو أن يصرّوا على إعراضهم وانصرافهم عن المصطفى ﷺ لحاجةٍ فى أنفسهم ، وذلك معناه ضمنًا عدم تصديق القرآن الكريم لأنّ الّذى نزل به على قلب المصطفى ﷺ هو الرّوح الأمين جبريل عليه السّلام عدوّ اليهود حسب زعمهم . بل إنّ الأمر قد انتهى باليهود ، كما عرفنا من سبب النّزول ، إلى الزّعم بأنّ المصطفى ﷺ ما جاءهم بشيءٍ يعرفونه وما أنزل الله تعالى عليه من آيةٍ بيّنة . وها هى ذى الآية الكريمة فى أقوى صور التّوكيد تبيّن أنّ ربّ العزّة قد أنزل على حبيبه ﷺ آياتٍ بيّنات . وإنّ الواو من « ولقد » تفيد القَسَم واللّام تفيد التّوكيد وقد تفيد التّحقيق . وإنّ آيات القرآن الكريم الّتى تعيّن الآية الكريمة مصدرها توصف بأنّها واضحات . فآيات القرآن الكريم علاماتٌ بيّناتٌ واضحات ، يعرف ذلك اليهود وسواهم حقّ المعرفة ، ولكنّهم ينكرونها ويجحدونها . وكيف لا يعرف بنو إسرائيل كون آيات القرآن الكريم علاماتٍ بيّنات وهى الّتى تصدّق ما جاءت به التّوراة . بل إنّ هذه الآيات البيّنات تبيّن كثيرًا ممّا كان يخفيه أحبار اليهود ورهبان النّصارى. إنّ تلك المعلومات الّتى تجلّيها آيات القرآن الكريم يعتبر كثيرٌ منها فى حكم الأسرار المضنون بها على غير أهلها ، وبالتّالى هى تخفى على كثيرٍ من أهل الكتاب ، وإنّ آيات القرآن الكريم تظهرها فى أجلى صورة . فما معنى إصرار اليهود على الزّعم بأنّهم لا يؤمنون به ﷺ لأنّ صاحبه من الملائكة جبريل عليه السّلام عدوّهم ؟ معناه أنّ القوم يعرفون نعمة الله تعالى المتمثّلة فى إنزال أشرف الكتب السّماويّة على خاتم الأنبياء والمرسلين ثمّ هم يجحدون بها بعد أن استيقنتها أنفسهم ووثقت أنّها وحىٌ

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٣٨٠ .

من الله تعالى . معناه أنّ القوم يكفرون نعم الله تعالى ويسترونها ولا يقومون بما يجب عليهم تجاهها من شكرٍ لله تعالى باتّباع الرّسول النّبىّ الأمّىّ الّذى يجده أهل الكتاب مكتوبًا عندهم فى التّوراة والإنجيل .

وإذا تساءلنا عن السّبب وراء تورّط القوم فى كفران نعم الله تعالى وعدم تصديق خاتم الأنبياء والمرسلين فإنّا نستطيع أن نفهم بنصّ الآية الكريمة أنّ تلك العاقبة الوخيمة كانت ثمرة فسقهم وخروجهم المستمرّ عن طاعة الله تعالى وعصيانهم الدّائم له جلّ وعلا . وكأنّ الآية الكريمة تنبّه إلى كون الفسق سببًا مؤديًا إلى ما هو أشمل منه وهو الكفر .

ومع أنّ الآية الكريمة تتّجه ابتداءً إلى كفّار اليهود الفاسقين ، فإنّها وراء ذلك تشمل كلّ الّذين كان لهم من دين الإسلام الحقّ ذات موقف اليهود . إنّهم إنّما كفروا بآيات الله تعالى البيّنات ومعجزات القرآن الكريم الباهرات بسبب فسقهم وعصيانهم والعياذ بالله .

وإذا كنّا تبيّنّا بشأن الآية الكريمة أنّ الكفر أعمّ من الفسق باعتبار الفسق ، الّذى يقع بالكثير من الذّنوب غالبًا ، يعتبر ممهّدًا للانتهاء إلى هذا النّوع من الكفر الغاية فى السّوء ، فالحقيقة أنّا بالنّظر إلى مراحل الكفر ، الّتى يصحّ أن تتمثّل أولاها فى الإخلال بالشّريعة وترك ما يلزم المرء من شكر الله تعالى ، نستطيع أن نفهم ما قرّره الرّاغب فى مفرداته من كون الكفر مرّةً أعمّ من الفسق ، وكون الفسق مرّةً أخرى أعمّ من الكفر . إنّ الكفر فى مراحله الأولى مؤدّ إلى الفسق الّذى يقع بالكثير من الذّنوب . وإنّ الفسق بدوره يؤدّى إلى مراحل الكفر الأخيرة ، والّتى تتمثّل على سبيل المثال فى الكفر بآيات الله تعالى البيّنات ، وعداوة جبريل عليه السّلام وتكذيب المصطفى ﷺ .

ومن الواضح بنصّ الآية الكريمة أنّ حظّ بنى إسرائيل من مراحل الكفر الأخيرة الأشدّ سوءًا هو الموفور .

الآيــة رقــم (١٠٠)

قال تعالى : ﴿ أو كلّما عاهدوا عهدًا نبذه فريقٌ منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾ .

سبب النّزول .

« عن ابن عبّاس قال : قال مالك بن الصّيف حين بعث رسول الله ﷺ وذكر لهم

ما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد الله إليهم فيه والله ما عهد إلينا فى محمّد ﷺ وما أخذله علينا ميثاقًا فأنزل الله جلّ ثناؤه : أو كلّما عاهدوا عهدًا نبذه فريقٌ منهم بل أكثرهم لا يؤمنون »(١).

أو كلّما: الواو للعطف على محذوف معناه أكفروا بالآيات البيّنات وكلّما عاهدوا(٢) وقد دخلت على واو العطف ألف الاستفهام كما تدخل على الفاء فى قوله : أفحكم الجاهليّة ، أفأنت تُسْمع الصُّمّ ، أفتتخذونه وذرّيّته ، وعلى ثمّ كقوله : أثمّ إذا ما وقع . هذا قول سيبويه(٣) ومذهب سيبويه والنّحويّين أنّ الأصل تقديم هذه الواو والفاء وثمّ على همزة الاستفهام . وإنّما تقدّمت الهمزة لأنّ لها صدر الكلام(٤) والمراد بهذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه من تكرّر عهودهم ونقضها فصار ذلك عادةً لهم وسجيّة فينبغى ألاّ يكترث بأمرهم(٥). والكلّ بالضّمّ اسمٌ لجميع الأجزاء للذّكر والأنثى ، وتفيد التّكرار بدخول ما المصدريّة الظّرفيّة عليها على نحو ما جاء فى الآية الكريمة .

وبشأن العهود الّتى اعتاد بنو إسرائيل نقضها نستطيع أنْ نفهم منها العهد الّذى عاهدوا لئن خرج محمّد لنؤمننّ به ولنكوننّ معه على مشركى العرب فلمّا بُعِث كفروا به(٦) وقد أشارت هذه الآية الكريمة من سورة البقرة (٧) إلى كفرهم . قال تعالى : ﴿ ولمّا جاءهم كتابٌ من عند الله مصدّقٌ لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلّما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ وقال عطاء : هى العهود الّتى كانت بين النّبى ﷺ وبين اليهود فنقضوها كفعل قريظة والنّضير . دليله قوله تعالى : ﴿ الّذين عاهدت منهم ثمّ ينقضون عهدهم فى كلّ مرّة وهم لا يتّقون(٨) كما أنّا نستطيع أن نفهم من تلك العهود الّتى نقضوها « الميثاق الّذى أعطته بنو إسرائيل ربّهم ليعملنّ

---

(١) تفسير الطّبرى ١ / ٣٥٠ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ١٣٣ وتفسير القرطبى ص ٤٣١ والبحر المحيط ١ / ٣٢٣ .

(٢) الكشّاف ١ / ٢٣٠ (٣) تفسير القرطبى ص ٤٣٠ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٣٢٣ (٥) البحر المحيط ١ / ٣٢٣ .

(٦) تفسير القرطبى ص ٤٣١ (٧) الآية ٨٩ .

(٨) تفسير القرطبى ص ٤٣١ والبحر المحيط ١ / ٣٢٣ .

بما فى التّوراة مرّةً بعد أخرى ثمّ نقض بعضهم ذلك مرّةً بعد أخرى فوبّخهم جلّ ذكره بما كان منهم من ذلك وعيّر به أبناءهم إذ سلكوا منهاجهم فى بعض ما كان جلّ ذكره أخذ عليهم بالإيمان به من أمر محمّد ﷺ من العهد والميثاق فكفروا وجحدوا ما فى التّوراة من نعته وصفته »[١] كما أنّا نستطيع أن نفهم من تلك العهود ما أخذه رسل الله تعالى من أقوامهم من عهود تبعًا لما أخذه جلّ وعلا من هؤلاء الرّسل بأن يصدّق كلّ رسول الرّسول الّذى يبعثه الله تعالى بعده إلى أن يبعث خاتم الأنبياء والمرسلين فيلزم كلّ أتباع الرّسل السّابقين أن يؤمنوا به ﷺ وينصروه . وإلى هذا النّوع من العهد المؤكّد أشارت الآية الكريمة من آل عمران[٢] : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثمّ جاءكم رسولٌ مصدّقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين ﴾ .

نبذه : « النون والباء والذّال أصل صحيح يدلّ على طرحٍ وإلقاء »[٣] « قال أبو جعفر : وأمّا النّبذ فإنّ أصله فى كلام العرب الطّرح ولذلك قيل للملقوط المنبوذ لأنّه مطروح مرمىّ به ، ومنه سمّى النّبيذ نبيذًا لأنّه زبيبٌ أو تمرٌ يطرح فى وعاءٍ ثمّ يعالج بالماء وأصله مفعول صرف إلى فعيل . أعنى أنّ النّبيذ أصله منبوذ ثمّ صرف إلى فعيل فقيل نبيذ كما قيل : كَفٌّ خضيب ولحيةٌ دهين ، يعنى مخضوبة ومدهونة . يقال منه : نبذته أنبِذُه نبذًا ، كما قال أبو الأسود الدّيلى :

نظرت إلى عنوانه فنبذته كنبذك نعلاً أخلقت من نعالكا

فمعنى قوله جلّ ذكره : نبذه فريقٌ منهم طرحه فريقٌ منهم فتركه ورفضه ونقضه »[٤] « ونسبة النّبذ إلى العهد مجاز لأنّ العهد معنىً والنّبذ حقيقة إنّما هو فى المتجسّدات . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليمّ . إذِ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًّا ... لنبذ بالعراء »[٥] .

فريق : اسم جنس لا واحد له يقع على القليل والكثير[٦] بمنزلة الجيش والرّهط الّذى

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٥١
(٢) معجم مقاييس اللّغة « نبذ » ٥ / ٣٨٠ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٥١
(٤) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٥١ .
(٥) البحر المحيط ١ / ٣٢٤
(٦) البحر المحيط ١ / ٣٢٤ .

لا واحد له من لفظه[١] .

بل أكثرهم لا يؤمنون « يعنى جلّ ثناؤه : بل أكثر هؤلاء الّذين كلّما عاهدوا الله عهدًا وواثقوه موثقًا نقضه فريقٌ منهم لا يؤمنون »[٢] ويقول أبو حيّان[٣] : « ولما كان الفريق ينطلق على القليل والكثير وأسند النّبذ إليه كان فيما يتبادر إليه الذّهن أنّه يحتمل أن يكون النّابذون قليلاً فبيّن أنّ النّابذين هم الأكثر وصار ذكر الأكثر دليلاً على أنّ الفريق هنا لا يراد به اليسير منهم ، فكان هذا إضرابًا عمّا يحتمله لفظ الفريق من دلالته على القليل » ويقول الزّمخشرىّ[٤] : « بل أكثرهم لا يؤمنون بالتّوارة وليسوا من الدّين فى شىء فلا يعدّون نقض المواثيق ذنبًا ولا يبالون به » « وقال السّدّىّ : لا يؤمنون بما جاء به محمّد ﷺ »[٥] .

لقد وضعت الآية الكريمة السّابقة قاعدةً عريضةً اتّضح معها أنّ الكفر بآيات الله تعالى البيّنات مقصورٌ على الفاسقين . وتنطبق هذه القاعدة على بنى إسرائيل تمام الانطباق ، فى الوقت الّذى تنطبق فيه على غيرهم من الّذين تتحقّق فيهم تلك الصّفات السّيّئة . وتتحوّل الآية الكريمة الّتى نحن بصددها إلى بنى إسرائيل الّذى اعتادوا نقض العهود والمواثيق ومنها الكفر بآيات الله تعالى الذى نصّت عليه الآية الكريمة السّابقة ، لأنّ فى ذلك الكفر مخالفةً صريحةً لتعاليم التّوراة الّتى يوجد فيها نعت المصطفى ﷺ والّتى أخذ فيها العهد على بنى إسرائيل باتباعه ﷺ . والآية الكريمة فى أسلوبها الاستفهامىّ تنكر على بنى إسرائيل اعتيادهم نقض العهود والمواثيق دون أدنى اهتمام أو شعورٍ بحرج . ولا يقف الأمر عند نقضهم العهد الّذى أخذ عليهم فى التّوارة إنّما تجاوزوه إلى نقض كلّ عهدٍ بينهم وبين المصطفى ﷺ . وبسبب هذا النّقض المعتاد للعهود والمواثيق أخرج الله سبحانه وتعالى بطون اليهود فى تلك المنطقة وكتب عليهم الجلاء والقتل والأسر . فبنو النّضير مثلاً يخرجهم الله تعالى وحده لا شريك له ويجليهم من المنطقة . وبنو قريظة ينزلهم الله تعالى

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٥١
(٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٥١ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٣٢٤
(٤) الكشّاف ١ / ٢٣٠ .
(٥) تفسير ابن كثير ١ / ١٣٤ .

وحده لا شريك له من صياصيهم . وقد قذف الله تعالى فى قلوب بنى النّضير وبنى قريظة الرّعب الّذى قذفه الله تعالى فى قلوب المشركين فى بدر وفى أحد . والمعروف أنّ لفظة الرّعب لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ فى حقّ الكفّار من مشركى العرب ومن اليهود(١) .

وتبيّن الآية الكريمة أنّ نقض العهود الّذى اعتاده فريقٌ من بنى إسرائيل ، ما كان ليحدث ويتكرّر حتّى يصبح النّقض دأب القوم وديدنهم لولا أنّ أكثرهم لا يؤمنون . ويصحّ أن نفهم عدم إيمان القوم هنا بأنّه عدم إيمانٍ بالتّوراة الّتى تحثّهم على الوفاء بالعهود ومن هذه العهود تصديق المصطفى ﷺ . والمعروف أنّ الوفاء بالعهود واحدٌ من فصوص عقد الحكمة غير القابل للنّسخ فى سائر الشّرائع . وعلى سبيل المثال أشارت آيات الحكمة من سورة الإسراء ، ابتداءً من الآية الكريمة الثّانية والعشرين وانتهاءً بالآية الكريمة التّاسعة والثّلاثين ، إلى مجموعة من حبّات عقد التّعاليم السّماويّة غير القابلة للنسخ فى سائر الشّرائع السّماويّة . وقد جاء بشأن الوفاء بالعهد قوله تعالى(٢) : ﴿ وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسئولا ﴾ .

وحينما لا يؤمن أكثر بنى إسرائيل بالتّوراة ، فمن باب الأولى والأحرى ألاّ يؤمنوا بالقرآن الكريم الّذى أنزله الله تعالى فى أسمى صور الوحى على خاتم الأنبياء والمرسلين .

الآيــة رقــم (١٠١)

قال تعالى : ﴿ ولمّا جاءهم رسولٌ من عند الله مصدّقٌ لما معهم نبذ فريقٌ من الّذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون ﴾ .

بيّن السّياق أنّ عداوة بنى إسرائيل لجبريل عليه السلام أمرٌ لا مبرّر له لأنّه رسول ربّ العالمين من الملائكة وما خصّه جل وعلا به يدعو إلى حبّه عليه السّلام لا إلى عداوته .

---

(١) انظر الآية ١٢ من سورة الأنفال والآية ١٥١ من سورة آل عمران والآية ٢ من سورة الحشر والآية ٢٦ من سورة الأحزاب . وقد رتّبنا الآيات وفق ترتيب الأحداث أمّا قوله تعالى فى سورة الكهف آية ٤٨ : « لو لّيت منهم فرارًا ولملئت منهم رعبًا » فشامل لجميع المخاطبين .

(٢) سورة الإسراء ٣٤ .

وحينما يضرّ بنو إسرائيل على عداوته فذلك معناه حقيقةً أنّهم أعداء لله تعالى ولملائكته ورسله . وحينما يكون جبريل عليه السّلام هو حامل القرآن الكريم من ربّ العالمين فذلك معناه أنّ بنى إسرائيل سوف يكفرون بالقرآن الكريم لأنّ جبريل حسب زعمهم عدوّهم . ويبيّن السّياق حقيقة الباعث على كفر اليهود وغيرهم بآيات الله تعالى البيّنات ألا وهو تماديهم فى الفسوق والعصيان . وقد حملهم فسقهم على نقضهم للعهود والمواثيق . ومن هذه العهود ما أخذته التّوراة عليهم من تصديق لخاتم الأنبياء والمرسلين . والآية الكريمة الّتى تحوّلنا إليها تتحدّث فى هذا الشّأن .

وأوّل ما يصادفنا فى الآية الكريمة جملة « جاء » الّتى عرفنا أنّها لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب والوصول والمجىء فعلاً . فالرّسول محمّد ﷺ الّذى كان يستفتح به اليهود ويستنصرون الله جلّ وعلا أن يبعثه وهو الّذى قد أظلّ زمانه ودنا وقت مجيئه على نحو ما فهم القوم من التّوراة ، حينما بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين وجاء إلى بنى إسرائيل فعلاً وهاجر إلى المدينة المنوّرة الّتى كان يسكن منطقتها بنو إسرائيل ، كفر به القوم .

والآية الكريمة تستعمل فى حقّ المصطفى ﷺ لفظة « رسول » ومعروفٌ أنّ منزلة الرّسول مستمّدةٌ من منزلة مرسله . ومعروفٌ كذلك أنّ أكبر نعمةٍ يمتنّ الله تعالى بها على عبدٍ من عبيده هى نعمة الرّسالة الّتى تعتبر نعمة النّبوّة الطّريق الوحيد المؤدّى إليها . وتنعت الآية الكريمة هذا الرّسول بكونه مرسلاً من عند الله تعالى ، وتردف ذلك النّعت الجليل الخطر بالإشارة إلى الآية البيّنة الدّالّة على صدق هذا الرّسول وكونه مرسلاً من عند الله تعالى ، وهذه الآية البيّنة هى القرآن الكريم معجزة المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة المصدّقة للتّوراة والّتى تصدّقها التّوراة .

ويدلاً من أن يفى بنو إسرائيل بالعهد الّذى أخذ عليهم فى التّوراة بأن يتّبعوا النّبىّ الأمّىّ الّذى تصدّق معجزته الكبرى الخالدة التّوراة هم ينقضون الميثاق ولا يفون بالعهد . وانظر إلى المدى البعيد لتنكّر بنى إسرائيل لتعاليم التوراة للدّرجة الّتى لم يقفوا معها عند نقض عهد التّوراة إنّما تجاوزوه بنصّ الآية الكريمة إلى إلقاء التّوراة خلفهم ظهريًّا . وكى

نفهم الجملة الواقعة جواب لمّا الدّالّة على هجر التّوراة « نبذ فريقٌ من الّذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » فى الإمكان أن نتمثّل ذلك الشخص الّذى يأكل التّمر ويرمى بالنّوى تباعًا وراء ظهره مِنْ على كتفيه . إنّه يلقى بالنّوى وينبذه كيفما اتفق دليلاً أكيدًا على عدم اهتمامه بالنّوى ورغبته الجادّة فى التّخلّص منه بأيسر السُّبل وأقلّ التّكاليف وأدنى التّبعات . إنّه يطرحه خلفه كيفما اتّفق وكأنّه لا يريد أن تتأذّى عيناه بالنّوى فيما لو فرض أن ألقاه أمامه أو عن يمينه أو عن شماله . إنّ أبلغ ذليل على هوان النّوى نبذه وراء ظهره . وهذا هو ما فعله بنو إسرائيل ، الّذين آتاهم الله تعالى كتابًا سماويًّا ، بذلك الكتاب السّماوىّ ألا وهو التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام . والآية الكريمة بتقريرها عمليّة نبذ بنى إسرائيل التّوراة وراءهم ظهريًّا تريد أنْ تبيّن أنّ القوم لم يقفوا عند نقض العهد الّذى أخذته التّوراة عليهم باتّباع الرّسول النّبىّ الأمّى ، إنّما تجاوزوا ذلك إلى التخلّص الكلّىّ من التّوراة وكأنّها عبءٌ ثقيلٌ لا يطيقونه ، وعنتٌ شديدٌ مفروضٌ عليهم ، وها هم أولاء ينبذ التّوراة وراءهم قد غدوا أحرارًا يفعلون كلّ ما تأمرهم به أنفسهم الأمّارة بالسّوء ويسوّله لهم الشّيطان الرّجيم . وهكذا تخطّف شياطين الإنس والجنّ بنى إسرائيل ، وهكذا يتخطّفون كلّ من يتّخذ كلام الله تعالى مهجورا . ومعروفٌ أنّ القرآن الكريم ناسخٌ للكتب السّماويّة السّابقة ومهيمنٌ عليها . فعلى كلّ عباد الله تعالى أن يهتدوا بهدي القرآن الكريم الّذى يهدى إلى الطّريقة الّتى هى أقوم .

وحينما يطرح بنو إسرائيل التّوراة وراءهم ظهريًّا ولا يتمسّكون بتعاليمها بل يفعلون كلّ ما راق لهم وهويته أنفسهم الأمّارة بالسّوء ، ما الفرق فى الأعمال بينهم وبين الّذين لم يصطفهم الله تعالى بكتابٍ سماوىّ ؟ لا فرق بين الفريقين . فالّذين لم يصطفهم الله تعالى بكتابٍ سماوىّ و لم يصل إليهم نور الهداية و لم يعلموا بأنّ هناك إلٰهًا واحدًا معبودًا بحقّ ، يتساوون فى الأعمال بالّذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . فالفريقان سواءٌ فى الجهل . وفرق بين الفريقين أنّ الّذين لا يعلمون ربّما وجدوا العذر لما يأتون من أعمال ، لأنّ نور الهداية لم يصلهم أساسًا ، أمّا الّذين يعلمون والّذين اصطفاهم الله تعالى بنور الهداية فإنّهم أغمضوا أعينهم عمدًا كيلا يصل إليها نور الهداية ، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم كيلا يصل

صوت الحقّ إليهم وكيلا يقرع مسامعهم ، واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكبارا . إنّ الحال الثّانية هى حال الفريق من بنى إسرائيل الّذى نبذ كتاب الله تعالى وراءه والّذى تساوى بسبب ذلك النّبذ بالّذى ليس لديه علمٌ سماوىٌّ أصلاً . والله سبحانه وتعالى يقول [١] : ﴿ قل هل يستوى الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون إنّما يتذكّر أولو الألباب ﴾ إنّ بنى إسرائيل غيرَ ذوى الألباب قد آثروا أن يتساووا بالّذين لا يعلمون وبدّلوا نعمة الله تعالى كفرًا وأحلّوا قومهم دار البوار . ويبدو خسران بنى إسرائيل المبين الّذى يفهم من قوله تعالى ﴿ نبذ فريقٌ من الّذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون ﴾ حينما نتأمّل مثل قوله تعالى من سورة الجاثية[٢] : ﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنّبوّة ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على العالمين . وآتيناهم بيّناتٍ من الأمر فما اختلفوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم . إنّ ربّك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

وحينما يطرح بنو إسرائيل التّوراة وراءهم ظهريًّا ، وحينما لا يتّبعون وحى الله تعالى ، فذلك معناه أنّهم لن يتّبعوا بطريق الأولى والأحرى تعاليم القرآن الكريم الّذى أنزله الله تعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين . فما الّذى سوف يتّبع بنو إسرائيل إذنْ بعد أن تخلّصوا تمامًا من التّوراة الكتاب السّماوىّ الّذى أوحاه الله تعالى إلى نبيّهم موسى عليه السّلام ؟ الجواب نتبيّنه فى الآية الكريمة التّالية .

الآيــة رقــم (١٠٢)

قال تعالى : ﴿ واتّبعوا ما تتلو الشّياطينُ على مُلْكِ سليمان وما كفر سليمان ولكنّ الشّياطين كفروا يعلّمون النّاس السّحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروتَ وماروت ، وما يعلّمان من أحدٍ حتّى يقولا إنّما نحن فتنةٌ فلا تكفر ، فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارّين به من أحدٍ إلاّ بإذن الله ، ويتعلّمون ما يضرّهم

---

(١) سورة الزّمر ٩ (٢) الآية ١٦ ، ١٧ .

ولا ينفعهم ، ولقد علموا لَمَنِ اشتراه ماله فى الآخرة من خلاقٍ ، ولبئس ما شَرَوْا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ .

سبب النّزول .

قال محمّد بن إسحاق بن يسار : « عَمَدَتِ الشّياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السّلام فكتبوا أصناف السّحر : من كان يحبّ أن يبلغ كذا وكذا فَلْيَفْعَلْ كذا وكذا . حتّى إذا صنعوا أصناف السّحر جعلوه فى كتابٍ ثمّ ختموا عليه بخاتم على نقش خاتم سليمان وكتبوا فى عنوانه : هذا ما كتب آصف بن برخيا الصّديق للملك سليمان ابن داود من ذخائر كنوز العلم . ثمّ دفنوه تحت كرسيّه فاستخرجته بعد ذلك بقايا بنى إسرائيل حين أحدثوا ما أحدثوا . فلّما عثروا عليه قالوا : ما كان سليمان بن داود إلاّ بهذا ، فأفشوا السّحر فى النّاس وتعلّموه وعلّموه ، فليس فى أحدٍ أكثر منه فى يهود . فلّما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من الله سليمان بن داود وعدّه فيمن عدّه من المرسلين قال من كان بالمدينة من يهود : ألا تعجبون لمحمّد ﷺ يزعم أنّ سليمان بن داود كان نبيًّا ، والله ما كان إلاّ ساحرًا ، فأنزل الله فى ذلك من قولهم على محمّد ﷺ : واتّبعوا ما تتلو الشّياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكنّ الشّياطين كفروا »[1]

ويقول أبو حيّان[2] : « نقل فى أسباب النّزول من أنّ الشّياطين كتبت السّحر واختلقته ونسبته إلى سليمان وآصف وقيل الّذى تلته هو الكذب الّذى تضيفه إلى ما تسترق من أخبار السّماء . وأضافوا ذلك إلى سليمان تفخيمًا لشأن ما يتلونه لأنّ الّذى كان معه من المعجزات وإظهار الخوارق وتسخير الجنّ والإنس وتقريب المتباعدات وتأليف الخواطر وتكليم العجماوات كان أمرًا عظيمًا . والسّاحر يدّعى أشياء من هذا النّوع من تسخير الجنّ وبلوغ الآمال والتّأثير فى الخواطر ويدّعى قلب الأعيان » .

واتّبعوا ما تتلو الشّياطين على ملك سليمان . هذا إخبارٌ من الله تعالى عن الطّائفة الّذين نبذوا الكتاب بأنّهم اتّبعوا السّحر أيضًا وهم اليهود[3] قال ابن زيد والسّدّى : يعود

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٥٤ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ١٣٥ وتفسير القرطبىّ ص ٤٣٢ والبحر المحيط ١ / ٣٢٦ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٣٢٦

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٣٢ .

الضّمير فى : واتّبعوا على من كان من اليهود فى عهد سليمان . وقال ابن عبّاس : فى عهد رسول الله ﷺ . وقيل : يعود على جميع اليهود[١] يعنى واتّبعوا كتب السّحر والشّعوذة الّتى كانت تقرؤها . على ملك سليمان : أى على عهد ملكه وفى زمانه . وذلك أنّ الشّياطين كانوا يسترقون السّمع ثمّ يضمّون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفّقونها ويلقونها إلى الكهنة وقد دوّنوها فى كتب يقرءونها ويعلّمونها النّاس وفشا ذلك فى زمن سليمان عليه السّلام حتّى قالوا إنّ الجنّ تعلم الغيب . كانوا يقولون هذا علم سليمان ، وما تمّ لسليمان ملكه إلاّ بهذا العلم وبه يسخّر الإنس والجنّ والرّيح الّتى تجرى بأمره[٢] .

تتلو : قال عطاء : تتلو تقرأ من التّلاوة[٣] وتحدّث وتروى وتتكلّم به وتخبر ، نحو تلاوة الرّجل للقرآن وهى قراءته[٤] وهو مضارع فى معنى الماضى أى ما تلت[٥] .

والشّياطين هنا قيل : هم شياطين الجنّ . وهو المفهوم من هذا الاسم . وقيل : المراد شياطين الإنس المتمرّدون فى الضّلال[٦] .

على ملك سليمان : قال الزّجّاج : المعنى على عهد ملك سليمان[٧] وسليمان اسمٌ أعجمّى وامتنع من الصّرف للعلميّة والعجمة[٨] .

وما كفر سليمان : تبرئةٌ من الله لسليمان . ولم يتقدّم فى الآية أنّ أحدًا نسبه إلى الكفر ولكنّ اليهود نسبته إلى السّحر ، ولمّا كان السّحر كفرًا صاروا بمنزلة من نسبه إلى الكفر[٩] ويقول الرّاغب[١٠] : « ولمّا جُعِل كلُّ فعلٍ محمودٍ من الإيمان جُعِل كلُّ فعلٍ مذمومٍ من الكفر ، وقال فى السّحر : وما كفر سليمان ولكنّ الشّياطين كفروا يعلّمون النّاس السّحر » .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٢٥ .
(٢) الكشّاف ١ / ٢٣٠ .
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٣٢
(٤) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٥٥ .
(٥) البحر المحيط ١ / ٣٢٦ وتفسير القرطبىّ ص ٤٣٣ .
(٦) تفسير القرطبىّ ص ٤٣٣ وانظر البحر المحيط ١ / ٣٢٦ .
(٧) تفسير القرطبىّ ص ٤٣٣ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ١٣٥ والبحر المحيط ١ / ٣٢٦ .
(٨) البحر المحيط ١ / ٣١٨
(٩) تفسير القرطبىّ ص ٤٣٣ .
(١٠) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٤٣٤ .

ولكنّ : كلمة لها معنيان نفى الخبر الماضى ، وإثبات الخبر المستقبل . وهى مبنيّةٌ من ثلاث كلمات . لا ، ك ، إنّ . لا نفى ، والكاف خطاب ، وإنّ إثبات وتحقيق . فذهبت الهمزة استثقالاً ، وهى تثقّل وتخفّف ، فإذا ثقّلت نصبت كأنّ الثقيلة ، وإذا خفّفت رفعت بها كما ترفع بأن الخفيفة[١] .

ولكنّ الشّياطين كفروا : أى ألقت إلى بنى آدم أنّ ما فعله سليمان من ركوب البحر واستسخار الطّير والشّياطين كان سحرا[٢] فأثبت كفرهم بتعليم السّحر[٣] .

وظاهر قوله : يعلّمون النّاس السّحر أنّهم يفهّمونهم إيّاه بالإقراء والتّعليم[٤] يقصدون به إغواءهم وإضلالهم[٥] .

السّحر مصدر سحر يسحر سِحْرا . ولا يوجد مصدر لفعل يفعل على وزن فِعْل إلاّ سحر وفعل ، قاله بعض أهل العلم . قال الجوهرىّ : كلّ ما لطف ودقّ فهو سحر . يقال : سحره أبدى له أمرًا يدقّ عليه ويخفى انتهى[٦] ويقول القرطبىّ[٧] : « السّحر قيل : أصله التّمويه بالحيل والتّخاييل ، وهو أن يفعل السّاحر أشياء ومعانى فيخيّل للمسحور أنّها بخلاف ما هى به ، كالّذى يرى السّراب من بعيد فيخيّل إليه أنّه ماء ، وكراكب السّفينة السّائرة سيرًا حقيقيًّا يخيّل إليه أنّ ما يرى من الأشجار والجبال سائرةٌ معه . وقيل : هو مشتقٌّ من سحرت الصّبىّ إذا خدعته وكذلك إذا عللّته ... وقيل : أصله الخفاء فإنّ السّاحر يفعله فى خفية . وقيل : أصله الصّرف . يقال : ما سحرك عن كذا أى ما صرفك عنه ، فالسّحر مصروفٌ عن جهته .... والسّاحر : العالِم » ويقول[٨] : « ذهب أهل السّنّة إلى أنّ السّحر ثابتٌ وله حقيقة ..... ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنّهم يعلّمونه النّاس فدلّ على أنّ له حقيقة . وقوله تعالى فى قصّة سَحَرَةِ فرعون : وجاءوا بسحرٍ عظيم . وسورة الفلق ، مع اتّفاق المفسّرين على أنّ سبب

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٣٣ وانظر الصّاحبىّ فى فقه اللّغة ص ٢٦٨ .

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٣٢

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٣٣ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٣٢٨

(٥) الكشّاف ١ / ٢٣٠ .

(٦) البحر المحيط ١ / ٣١٩

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٤٣٤ .

(٨) تفسير القرطبىّ ص ٤٣٦ .

نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم وهو ممّا خرّجه البخارىّ ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : سَحَرَ رسولَ الله ﷺ يهودىّ من يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم الحديث . وفيه أنّ النّبىّ ﷺ قال لمّا حلّ السّحر : إنّ الله شفانى . والشّفاء إنّما يكون برفع العلّة وزوال المرض ، فدلّ على أنّ له حقًّا وحقيقة ، فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه . وعلى هذا أهل الحلّ والعقد الّذين ينعقد بهم الإجماع » .

وما أنزل على الملكين : ويعلمونهم ما أنزل على الملكين ، أى ألهماه من السحر[١] وقذف فى قلوبهما[٢] وقد قيل إنّ ما عطف على السّحر وهى مفعولة . فعلى هذا يكون ما بمعنى الّذى ويكون السّحر المنزل على الملكين فتنةً للنّاس وامتحانا . ولله أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالوت ، ولهذا يقول الملكان إنّما نحن فتنة[٣] ويقول أبو حيّان[٤] : « وما أنزل : ظاهره أنّ ما موصول اسمى منصوب ، وأنّه معطوف على قوله السّحر . وظاهر العطف التّغاير فلا يكون ما أنزل على الملكين سحرًا » والقرّاء يقرءون : الملكين ، من الملائكة . وكان ابن عبّاس يقول : الملكين من الملوك[٥] .

ببابل : بلد فى سواد العراق[٦] واختصّت بابل بالإنزال لأنّها كانت أكثر البلاد سحرًا[٧] وبابل لا ينصرف للتّأنيث والتّعريف والعجمة[٨] .

هاروت وماروت : ذهب كثيرٌ من السّلف إلى أنّهما كانا ملكين من السّماء وأنّهما أنزلا إلى الأرض[٩] .

وما يعلّمان من أحد حتّى يقولا ... « قال الزّجّاج : وروى عن علىّ رضى الله عنه أنّه قال : إى[١٠] والّذى أُنزِل على الملكين وأنّ الملكين يعلّمان النّاس تعليم إنذارٍ من

---

(١) الجلالين
(٢) البحر المحيط ١ / ٣٢٩ .
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٤١
(٤) البحر المحيط ١ / ٣٢٨ .
(٥) معانى القرآن للفرّاء ١ / ٦٤
(٦) الجلالين وانظر تفسير القرطبىّ ٤٤٢ .
(٧) البحر المحيط ١ / ٣٣٠
(٨) تفسير القرطبىّ ص ٤٤٢ .
(٩) تفسير ابن كثير ١ / ١٣٧ وانظر تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٥٩ .
(١٠) إى بكسر الهمزة حرف جواب بمعنى نعم ولا تقع إلاّ قبل القَسَم . « قُلْ إى وربّى » .

السّحر لا تعليم دعاءٍ له . قال الزّجّاج : وهذا القول الّذى عليه أكثر أهل اللّغة والنّظر . ومعناه أنّهما يعلّمان النّاس على النّهى فيقولان لهم : لا تفعلوا كذا ولا تحتالوا بكذا لتفرّقوا بين المرء وزوجه »[١] كما لو سأل سائلٌ عن صفة الزّنا أو القتل فأخبر بصفته ليجتنبه[٢] .

فتنة : اختبار وابتلاء[٣] ومحنة[٤] .

فلا تكفر « عن ابن عبّاس قال : فإذا أتاهما الآتى يريد السّحر نهياه أشدّ النّهى وقالا له : إنّما نحن فتنةٌ فلا تكفر وذلك أنّهما علما الخير والشّرّ والكفر والإيمان فعرفا أنّ السّحر من الكفر »[٥] ويقول الزّمخشرىّ[٦] : « والّذى أنزل عليهما هو علم السّحر ابتلاءً من الله للنّاس ، من تعلّمه منهم وعمل به كان كافرًا ، ومن تجنّبه أو تعلّمه لا ليعمل به ولكن ليتوقّاه ولئلاّ يغترّ به كان مؤمنًا .

عرفت الشّرّ لا للشّرّ لكن لتوقّيه

.... فلا تكفر فلا تتعلّم معتقدًا أنّه حقٌّ فتكفر » .

فيتعلّمون منهما : « الضّمير الّذى فى فيتعلّمون لأحد ، وجمع حملاً على المعنى كما قال تعالى : فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين »[٧] أى فيتعلّم النّاس من الملكين[٨] .

ما يفرّقون به بين المرء وزوجه : أى علم السّحر الّذى يكون سببًا فى التّفريق بين الزّوجين[٩] بأن يبغّض كلاًّ إلى الآخر[١٠] والمرء الرّجل والأفصح فتح الميم مطلقًا ، ومؤنّثة المرأة[١١] ويثنّى كلّ منهما ولا يجمعان[١٢] وأمّا الزّوج فإنّ أهل الحجاز يقولون لامرأة الرّجل هى زوجه بمنزلة الزّوج الذّكر . ومن ذلك قول الله تعالى ذكره : أمسك عليك

---

(١) تفسير القرطبى ص ٤٤٣ (٢) البحر المحيط ١ / ٣٣٠ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ١ / ٢٦٨ والكشّاف ١ / ٢٣٠ والبحر المحيط ١ / ٣٣٠ .
(٤) تفسير القرطبى ص ٤٤١ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ١٤٣ .
(٥) تفسير ابن كثير ١ / ١٤٣ (٦) الكشّاف ١ / ٢٣٠ .
(٧) البحر المحيط ١ / ٣٣١ (٨) الكشّاف ١ / ٢٣١ .
(٩) الكشّاف ١ / ٢٣١ (١٠) الجلالين .
(١١) البحر المحيط ١ / ٣١٩ (١٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٤٣ .

زوجك . وتميم وكثير من قيس وأهل نجد يقولون هى زوجته[١] روى مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن النّبىّ ﷺ قال : إنّ الشّيطان ليضع عرشه على الماء ثمّ يبعث سراياه فى النّاس ، فأقربهم عنده منزلةً أعظمُهُمْ عنده فتنة . يجيء أحدهم فيقول : ما زلت بفلانٍ حتّى تركته وهو يقول كذا وكذا فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئًا . ويجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتّى فرّقت بينه وبين أهله قال : فيقرّبه ويدنيه ويلتزمه ويقول : نِعْمَ أنت[٢] .

وما هم بضارّين به من أحدٍ إلاّ بإذن الله : ما هم إشارة إلى السّحرة[٣] إلاّ بإذن الله : أى بإرادته وقضائه لا بأمره ، لأنّه تعالى لا يأمر بالفحشاء ويقضى على الخلق بها . وقال الزّجّاج : إلاّ بإذن الله إلاّ بعلم الله[٤] .

ويتعلّمون ما يضرّهم : يريد فى الآخرة وإن أخذوا بها نفعًا قليلاً فى الدّنيا . وقيل : يضرّهم فى الدّنيا . لأنّ ضرر السّحر والتّفريق يعود على السّاحر فى الدنيا إذا عُثِر عليه لأنّه يؤدّب ويزجر ويلحقه شؤم السّحر[٥] وكما ذكر أنّه يحصل به الضّرر لمن يفرّق بينهما ذكر أيضًا أنّ ضرره لا يقتصر على من يفعل به ذلك بل هو أيضًا يضرّ من تعلّمه[٦] .

ولقد علموا : اللاّم فى لقد للقَسَم ، هذا مذهب سيبويه وأكثر النّحويّين . وجملة : ولقد علموا ، مقسمٌ عليها ، التّقدير : والله لقد علموا[٧] والضّمير عائدٌ قيل على اليهود الّذين كانوا فى عهد سليمان عليه السّلام ، وقيل عائد على من بحضرة رسول الله ﷺ من اليهود . وقيل عائدٌ على اليهود قاطبة أى علموا ذلك فى التّوراة . وقيل عائدٌ على علماء اليهود[٨] .

لمن اشتراه : اختاره واستبدله بكتاب الله[٩] وموضع من رفع بالابتداء لأنّه لا يعمل ما قبل اللاّم فيما بعدها . ومن بمعنى الّذى[١٠] واللاّم تفيد التّوكيد[١١] ويقول الأخفش[١٢] : « فهذه لام الابتداء ، تدخل بعد العلم وما أشبهه ، ويبتدأ بعدها .

---

(١) تفسير الطّبرى ١ / ٣٦٨
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٤٣ .
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٤٥
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٤٥ .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤٤٥
(٦) البحر المحيط ١ / ٣٣٣ .
(٧) البحر المحيط ١ / ٣٣٤ .
(٨) انظر البحر المحيط ١ / ٣٣٣ .
(٩) الجلالين .
(١٠) تفسير القرطبىّ ص ٤٤٦ .
(١١) انظر تفسير القرطبىّ ص ٤٤٦
(١٢) معانى القرآن ١ / ١٤٢ .

تقول : لقد علمت لزيدٌ خيرٌ منك . قال : لَمنْ تبعك منهم لأملأنّ جهنّم . وقال : ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا » .

من خلاق : قال ابن عبّاس ومجاهد والسّدّى : من نصيب[١] قال الزّجّاج : وكذلك هو عند أهل اللّغة ، إلاّ أنّه لا يكاد يستعمل إلاّ للنّصيب من الخير[٢] والخلاق : القدر . قال الشّاعر :

فما لك بيتٌ لدى الشّامخات ... وما لك فى غالبٍ من خلاق[٣]

ولبئس ما : شيئًا[٤] .

شرَوْا : باعوا[٥] والضّمير فى شروا ويعلمون باتّفاق لليهود[٦] .

لو كانوا يعلمون : جعلهم حين لم يعملوا به كأنّهم منسلخون عنه[٧] .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ بنى إسرائيل الّذين كانوا يسكنون منطقة المدينة المنوّرة والّذين أخرجهم الله تعالى بسبب كفرهم حينما جاءهم رسولٌ من عند الله تعالى وهو محمّد ابن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ومع هذا الرّسول كتابٌ سماوىٌّ مصدّقٌ للكتاب السّماوىّ الّذى معهم وهو التّوراة الّتى فيها نعت خاتم الأنبياء والمرسلين والّتى تأمرهم باتّباعه عليه الصّلاة والسّلام حينما يبعث ، لم يكتف بنو إسرائيل بنبذ أمر التّوراة لهم باتّباع الرّسول النّبى الأمّىّ ﷺ ، إنّما تجاوزوا ذلك إلى نبذ التّوراة جملةً وتفصيلا ، وطرحها وراء ظهورهم ، والتّنكّر لتعاليمها تنكّرًا كلّيًّا ، وكأنّها لهوانها على القوم النّواة الّتى يقذف بها وراءه آكل التّمر . وبذلك تساوى بنو إسرائيل الّذين كرّمهم الله تعالى بإنزال التّوراة على رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام ، بالّذين لا علم لهم ، ولا رسول من الله بعث إليهم ، ولا كتاب سماويًّا جاءهم . والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تبيّن البديل الّذى اتّبعه بنو إسرائيل بعد أن نبذوا التّوراة وراء ظهورهم . وعلى عادة هذا القسم من السّورة الكريمة الّذى يتحدّث عن بنى إسرائيل جامعًا بين أجيال بنى إسرائيل السّابقة واللّاحقة

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٤٣ والبحر المحيط ١ / ٣١٩ .

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٤٦ (٣) البحر المحيط ١ / ٣١٩ .

(٤) الجلالين

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤٤٦ والكشّاف ١ / ٢٣١ .

(٦) البحر المحيط ١ / ٣٣٤ (٧) الكشّاف ١ / ٢٣١ .

لاشتراكهم فى تلك الصّفات أو لرضا المتأخّرين عن سوء صنيع المتقدّمين تتحدّث الآية الكريمة عن بنى إسرائيل .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ بنى إسرائيل الّذين ألقوا بالتّوراة وراءهم ظهريًّا قد اتّبعوا ما تتلو الشياطين على عهد ملك سليمان بن داود عليهما السّلام واعتادت أن تقرأه وتتحدّث به وتذيعه من كتب السّحر والشّعوذة والأكاذيب الّتى اعتادت أن تختلقها وتضيفها إلى ما استطاعت استراقه من السّمع وتدسّها بين القليل من حقائق الغيب وأنبائه الّتى تمكّنت من اختلاسها فى صعودها إلى السّماء وقعودها منها مقاعد للسّمع من الملائكة المقرّبين الّذين لا يعصون الله ما أمرهم والّذين يفعلون ما يؤمرون . وكانت هذه الشياطين قد جمعت فى كتابٍ ضروب السّحر والشّعوذة وضمّت إليها أحاديثها الملّفقة وأكاذيبها المختلقة ، ودفنت ذلك الكتاب تحت كرسّى سليمان عليه السّلام بعد الختم عليه بخاتمٍ على نقش سليمان عليه السّلام . وإنّما نسبت الشّياطين كذبًا وزورًا ذلك الكتاب إلى سليمان عليه السّلام وهو الّذى أمر بنى إسرائيل باتّباع تعاليم التّوراة ، بقصد تفخيم شأن الكتاب لفخامة شأن المنسوب إليه مستغلّةً أسوأ استغلال ــ بقصد صرف العباد عن الصّراط المستقيم ــ نعم الله تعالى على سليمان عليه السّلام ، موجّهةً تلك النّعم لأغراضها الدّنيئة وأهدافها الخسيسة . وقد أذاعت الشّياطين أنّ سليمان عليه السّلام إنّما استطاع أن يسخّر الجنّ والإنس والطّير والعجماوات والرّيح وما إلى ذلك عن طريق العلم الّذى تضمّنه ذلك الكتاب الّذى نسبته الشّياطين كذبًا إلى سليمان عليه السّلام .

وقد استطاعت بقايا بنى إسرائيل استخراج ذلك الكتاب فرسخ فى الأذهان واستقرّ فى النّفوس أنّ سليمان عليه السّلام إنّما كان ساحرًا و لم يكن نبيًّا ــ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ــ إنّ هذا الاعتقاد هو الّذى كان سائدًا بين بنى إسرائيل حينما هاجر المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة . وإنّ الآية الكريمة لتكذب بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ كما تكذب آباءهم الأوّلين « وما كفر سليمان ولكنّ الشّياطين كفروا » والمعنى أنّ سليمان عليه السّلام ما كفر بنعم الله تعالى ولا جحد آياته البيّنات ولا نبذ تعاليم التّوراة و لم يستعمل السّحر . أمّا الشّياطين من الجنّ ، ويلحق بهم

شياطين الإنس فإنّهم هم الّذين كفروا وجحدوا نعم الله تعالى وكذّبوا رسله وعطلوا كتبه وتعاملوا بالسّحر والشّعوذة والأكاذيب على نحو ما فعل بنو إسرائيل المعاصرون للمصطفى ﷺ . وإنّ القرآن الكريم فى العديد من المواضع ليُكْذب بنى إسرائيل ويؤكّد نبوّة سليمان عليه السّلام ويبيّن نعم الله تعالى على سليمان عليه السّلام وشكر سليمان لله تعالى على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة . ومن هذه الآيات البيّنات قوله تعالى فى سورة النّمل[1]: « ولقد آتينا داود وسليمان علمًا وقالا الحمد لله الّذى فضّلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال يا أيّها النّاس علّمنا منطق الطّير وأوتينا من كلّ شيءٍ إنّ هذا لهو الفضل المبين . وحُشِر لسليمان جنوده من الجنّ والإنس والطّير فهم يوزعون . حتّى إذا أتَوْا على وادى النّمل قالت نملةٌ يا أيّها النّمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسّم ضاحكًا من قولها وقال ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك الّتى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأنّ أعمل صالحًا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصّالحين . وتفقّد الطّير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذّبنّه عذابًا شديدًا أو لأذبحنّه أو ليأتينّى بسلطانٍ مبين . فمكث غير بعيدٍ فقال أحطت بما لم تُحِطْ به وجئتك من سبأٍ بنبأٍ يقين . إنّى وجدت امرأةً تملكهم وأوتيت من كلّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيم . وجدتُها وقومَها يسجدون للشّمس من دون الله وزيّن لهم الشّيطان أعمالهم فصدّهم عن السّبيل فهم لا يهتدون » وقال تعالى[2] : ﴿ قال يا أيّها الملأ أيّكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريتٌ من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنّى عليه لقويٌّ أمين . قال الّذى عنده علمٌ من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك . فلمّا رآه مستقرًّا عنده قال هذا من فضل ربّى ليبلونى أأشكر أم أكفر . ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه ومن كفر فإنّ ربّى غنىٌّ كريم . قال نكّروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الّذين لا يهتدون . فلمّا جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو . وأوتينا العلم من قبلها وكنّا مسلمين . وصدّها ما كانت تعبد من دون الله إنّها كانت من قومٍ كافرين . قيل لها ادخلى الصّرح فلمّا رأته حَسِبَتْه لُجّةً وكشفت عن

---

(١) الآيات ١٥ ــ ٢٤ .

(٢) سورة النّمل ٣٨ ــ ٤٤ .

ساقيها . قال إنّه صرْحٌ ممرّدٌ من قوارير . قالت ربّ إنّى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين ﴾ وجاء فى سورة ص[1] قوله تعالى : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبدُ إنّه أواب . إذ عُرِض عليه بالعشيّ الصّافناتُ الجياد . فقال إنّى أحببت حبّ الخير عن ذكر ربّى حتّى توارت بالحجاب . ردّوها علىّ فَطَفِق مَسْحًا بالسّوق والأعناق . ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كرسيّه جسدًا ثمّ أناب . قال ربّ اغفرلى وهب لى ملكًا لا ينبغى لأحدٍ من بعدى إنّك أنت الوهّاب . فسخّرنا له الرّيح تجرى بأمره رخاءً حيث أصاب . والشّياطين كلّ بنّاءٍ وغوّاص . وآخرين مقرّنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإنّ له عندنا لزُلفى وحُسْن مآب ﴾ وجاء فى سورة سبأ قوله تعالى[2] : ﴿ ولسليمان الرّيحَ غُدُوُّها شهرٌ ورواحها شهرٌ وأسلنا له عين القِطْر ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربّه . ومن يَزِغ منهم عن أمرنا نُذِقْه من عذاب السّعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيلَ وجفانٍ كالجوابِ وقدورٍ راسياتٍ اعملوا آل داود شكرا وقليلٌ من عبادى الشّكور . فلمّا قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلاّ دابّة الأرض تأكل منسأته . فلمّا خرّ تبيّنت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ﴾[3] .

وحينما تنفى الآية الكريمة عن سليمان عليه السّلام الكفر تثبت له عكس ذلك من الإيمان والشّكر ، وكيف لا يكون عليه السّلام ممثّلاً أعلى سمات الإيمان والشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه وهو الّذى اصطفاه الله تعالى بنعمة النّبوّة . وحينما تبيّن الآية الكريمة أنّ الشّياطين هم الّذين كفروا وحينما تقرّر السّبب الّذى من أجله كفروا وهو تعليم النّاس السّحر وقد قال تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكنّ الشّياطين كفروا يعلّمون النّاس السّحر ﴾ يكون معنى ذلك أنّ المراد بالكفر المنفىّ فى حقّ سليمان عليه السّلام كفران النّعمة فى المقام الأوّل فلم يفعل ما فعلته الشّياطين حينما استبدلت الّذى هو أدنى بالّذى هو خير ، فلم ينبذ عليه السّلام كتاب الله تعالى وهو التّوراة كما فعل بنو إسرائيل خلال العصور الّذين تعاملوا بالسّحر والشّعوذة والأكاذيب الملفّقة .

---

(١) الآيات ٣٠ — ٤٠ (٢) الآيات ١٢ — ١٤ .

(٣) وانظر كذلك الآيات الكريمات ٧٨ — ٨٢ من سورة الأنبياء .

و لم يقف الشّياطين عند تعلّم السّحر إنّما تجاوزوا ذلك إلى العمل به . و لم يقفوا عند العمل به إنّما تجاوزوا ذلك كلّه إلى تعليمه . وإنّ الشّياطين على علمٍ أكيدٍ مسبق بأنّ تعلّم السّحر والعمل به نوعٌ من الفتنة والابتلاء الّذى يعنى الانصراف عن تعاليم السّماء والصّراط المستقيم إلى سبل الضّلال المتفرّقة . إنّ الشّياطين يغرون النّاس بتعلّم السّحر بخلاف الملكين اللّذين يحذّران منه على نحو ما بيّنت الآية الكريمة : ﴿ وما كفر سليمان ولكنّ الشّياطين كفروا يعلّمون النّاس السّحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلّمان من أحدٍ حتّى يقولا إنّما نحن فتنةٌ فلا تكفر ﴾ .

إنّ الشّياطين الكافرين بنعم الله تعالى المنصرفين عن هديه السّماوىّ ووحيه إلى السّحر والشّعوذة يسهّلون للنّاس تعلّم هذا العلم الّذى يضرّهم ولا ينفعهم ، ويباشرون مهمّة التّعليم بأنفسهم . إنّهم يعلّمون النّاس السّحر كما يعلّمونهم ما أنزل الله سبحانه وتعالى على جهة الابتلاء والامتحان والاختبار على الملكين ببابل فى سواد العراق هاروت وماروت من السّحر . إنّ هذين الملكين كانا فى السّماء ، وإنّهما أنزلا إلى الأرض ابتلاءً . ومن متعلّقات هذا الابتلاء ما أنزل الله سبحانه وتعالى عليهما من السّحر فتنةً للنّاس وابتلاءً ، واختبارًا منه جلّ وعلا لهم بعد أن هداهم النّجدين طريق الخير الّذى بعث الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله للدّعوة إليه ، وطريق الشّر الّذى يدعو إليه شياطين الإنس والجنّ . أيتّبع النّاس أنبياء الله تعالى ورسله ويتمسّكون بهديه ، أم يتّبعون كلّ ناعق ، وينبذون وحى السّماء وراءهم ظهريًّا ، ويعملون بالسّحر والشّعوذة وما إليهما ؟

إنّ الشّياطين لا تدعو إلاّ إلى الشّرّ ومن ذلك تعليم السّحر ، وإنّ الملائكة لا تدعو إلاّ إلى الخير ، ومن هذا الخير الّذى تدعو إليه الملائكة تحذير الملكين هاروت وماروت النّاس الّذين يرغبون فى تعلّم السّحر ويصرّون على تعلّمه ، من تعلّم السّحر والتّبيين الشّافى الكافى للنّاس بأنّهما ليسا سوى فتنة من الله للنّاس وابتلاء منه جلّ وعلا لهم ليعلم الله سبحانه وتعالى علم ظهور من يتّبع وحى الله تعالى ممّن ينقلب على عقبيه فيتّبع شياطين الجنّ والإنس ويتعلّم السّحر ويعمل به . إنّ الملكين بعكس الشّياطين لا يعلّمان من أحدٍ من النّاس حتّى يقولا بصريح العبارة إنّما نحنٌ فتنةٌ من الله تعالى للنّاس فلا تكفر أيّها الرّاغب

فى السّحر نعم الله تعالى بأن تهجر وحيه جلّ وعلا وتعمل بكتب السّحر والشّعوذة .

ومن مظاهر الفتنة أنّ الملكين بعد التّحذير من الكفر امتثالاً لأمر الله تعالى ، يبادران ، امتثالاً لأمر الله تعالى إلى تعليم المصرّ على تعلم السّحر الّذى يضرّه ولا ينفعه . والآية الكريمة تختار عملاً واحدًا خطيرًا من الأعمال الكثيرة الضّارّة للسّحر ، ألا وهو التّفريق بين المرء وزوجه ، بين الزّوج وزوجته . وليس هذا العمل الضّارّ إلاّ رمزًا للأعمال الكثيرة الأخرى الضّارّة كلّها . وربّما كان التّنبيه إلى هذا النّوع من الضّرر بسبب تجاوز ضرره الزّوجين إلى الذّرّيّة والأسَر مثلاً ، وبسبب كثرة حدوث هذا النّوع من الضّرر من قبل السّاحر ، وبسبب اشتراك غير السّاحر ، كالحاثّ عليه ، فى هذا الذّنب العظيم ، وبسبب قدرة هذا النّوع من السّحر على تحوّل محض الخير والحبّ بين الزّوجين والمودّة الّتى جعلها الله سبحانه وتعالى بينهما شرًّا محضا وبغضًا خالصًا . فلنتأمّل قوله تعالى عن المودّة والرّحمة بين الزّوجين فى سورة الرّوم[1] : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمة . إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾ .

إنّ الآية الكريمة باختيارها من بين أعمال السّحر ، وكلّها ضارّ ، جريمة التّفريق بين الحلالين ، كأنّها تريد أن تنبّه إلى اشتراك كافّة الأطراف الّتى قامت بهذه الجريمة ومنها السّاحر ، فى جفاف روافد الرّحمة وينابيع العاطفة وامتلاء القلوب كفرًا بنعم الله تعالى ، والنّفوس حقدًا على عباده ، فلا تحيا تلك القلوب الكافرة ، ولا ترتاح تلك النّفوس الشّريرة إلاّ على تمزيق قلوب المحبّين ، وتقطيع أواصر علائق المودّة والرّحمة بين عباد الله تعالى .

أما فكّر السّاحر ومن وسوس له وزيّن له هدم البيوت على أربابها فى معنى التّفريق بين الحلالين ، وفى ضياع الذّرّيّة إن انضمّت إلى الأب وفى جوعها إن انضمّت إلى الأمّ ، وفى خصام البيوتات بعد وفاق وفى تنافر عناصر المجتمع بعد وئام ؟ وقس على هذا النّوع من البلاء سائر الأنواع الأخرى . وأنت لو أنعمت النّظر فى السّاحر ومن دار فى فلكه لا تجد فى قلب واحدٍ قطرةً من الرّحمة ولا فى نفسه رشفةً من الشّفقة . ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله

---

(١) الآية ٢١ .

العلّى العظيم .

وتبيّن الآية الكريمة أنّ وصول مثل هذا النّوع من الضّرر إنّما يتم بعلم الله تعالى وإذنه جلّ وعلا وإرادته . ولا يتمّ شيءٌ من ذلك بأمر الله تعالى ، لأنّه سبحانه وجلّ لا يأمر بالفحشاء . « وما هم بضارّين به من أحدٍ إلاّ بإذن الله » فليس الضّرر الّذى يلحق بالزّوجين وغيرهما بسبب السّحر وحده ، إنّما يلحق الضّرر إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يصل الّذى قدر عليه ذلك . ونستطيع أن نفهم من قوله تعالى على لسان الملكين : « إنّما نحن فتنة » الحكمة من وصول ضرر السّحر بإرادة الله تعالى إلى المسحور . إنّ وصول الضّرر نوعٌ من ابتلاء الله تعالى وامتحانه . ولله سبحانه وتعالى أن يمتحن عباده بما شاء : « لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون » .

وتقرّر الآية الكريمة وراء ذلك أنّ ضرر السّحر ليس مقصورًا على المسحور فقط ولا متعديًا إليه وحده بل مرتدًّا إلى السّاحر نفسه ومتجاوزًا إليه « ويتعلّمون ما يضرّهم ولا ينفعهم » والجزئيّة الكريمة تقرّر كذلك أنّ كلّ الّذى يعود على السّاحر بسبب سحره إنّما هو ضررٌ خالص وشرٌّ محض . ونستطيع أن نفهم أنّ الضّرر العائد على السّاحر متعلّقٌ بالحياة الآخرة ، فقد عرفنا أنّ التّعامل بالسّحر ضربٌ من كفران نعم الله تعالى المتمثّلة فى هديه الموحى به إلى رسله جلّ وعلا . فالسّاحر لا يتّبع كتب السّحر والشّعوذة إلاّ على حساب هدى الله تعالى الّذى ينبذه وراءه ظهريًّا . وقد جاء فى حقّ من أعرض عن ذكره جلّ وعلا قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإنّ له معيشةً ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال ربّ لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنْسى . وكذلك نجزى من أسرف و لم يؤمن بآيات ربّه ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى ﴾ . ونستطيع أن نفهم وراء ذلك أنّ ضرر السّحر شاملٌ للسّاحر فى الحياة الدنيا . ويكفى أن يقال إنّ الحياة الّتى يحياها السّاحر ليست بالحياة الطّيّبة لأنّه ليس من المؤمنين العاملين الصّالحات . وقد جاء فى حياة المؤمنين العاملين الصّالحات ، الطّيّبة فى الأولى والآخرة ، قوله تعالى[2] : ﴿ من عمل صالحًا من ذكرٍ

---

(١) سورة طه ١٢٤ — ١٢٧ (٢) سورة النّحل ٩٧ .

أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ .

والّذى يلفت الانتباه هو أنّ الجزئيّة الكريمة لا تكتفى بشأن نفى النّفع من تعلّم السّحر بإثبات الضّرّر ، فلا تكتفى بالقول : « ويتعلّمون ما يضرّهم » إنّما تتجاوزه إلى تأكيد الضّرر المطلق عن طريق نفى النّفع المطلق : « ويتعلّمون ما يضرّهم ولا ينفعهم » ويكفى السّحر ضررًا أنّ الملكين ببابل هاروت وماروت نهيا كلّ راغبٍ فى تعلّم السّحر عن الكفر بتعلّم السّحر والعمل به ، ويكفى السّحر ضررًا أنّ الشّياطين هى الّتى تعلّمه أولياءها .

وبعد حديث الآية الكريمة الواسع الشّامل عن السّحر ومصدره وآثاره الضّارّة على المسحور والسّاحر معًا ، وبعد أن كانت انطلاقة الآية الكريمة من بنى إسرائيل الّذين هجروا التّوراة واتّبعوا ما تتلو الشّياطين على ملك سليمان بن داود عليهما السّلام ، تعود الآية الكريمة إلى الحديث عن اليهود الّذين ورثوا السّحر عن آبائهم فتعلّموه وعملوا به ، وظلّوا يتوارثونه إلى عهد المصطفى ﷺ . إنّ الآية الكريمة فى عودتها إلى اليهود وذلك فى القول ابتداءً : « ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق » تقرّر أنّ اليهود الّذين اشتروا السّحر وكتب الشّعوذة بالكتاب السّماوىّ ، والّذين استبدلوا الكفر بالإيمان ، والكفران بالشّكران ، والّذين آثروا العاجلة الفانية على الآجلة الباقية كانوا على علمٍ أكيدٍ عن طريق تعاليم السّماء الّتى انتهت إليهم عن طريق أنبياء الله تعالى ورسله ، ومنهم سليمان عليه السّلام ، بأنهم ليس لهم فى الآخرة من خلاق فى الجنّة ولا نصيبٍ من خيرٍ فى الآخرة . لأنّ الجزاء من جنس العمل وليست أعمالهم إلاّ شرًّا متواصلاً مستطيرا ، وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ أم لم يُنَبَّأْ بما فى صحف موسى . وإبراهيم الّذى وفّى : ألاّ تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى. وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى. وأنّ سعيه سوف يُرَى. ثمّ يجزاه الجزاء الأوْفى . وأنّ إلى ربّك المنتهى ﴾ .

وفى هذه الجزئيّة الكريمة : « ولقد علموا لمن اشتراه » ضروبٌ من التّوكيد . فثمّة لام القسم الّتى تفيد التّوكيد ، وقد الّتى تفيد التحقيق ، واللاّم من « لمن » الّتى تفيد التّوكيد كذلك . ولام التّوكيد هذه نصادفها فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة الّتى تتحدّث هى الأخرى

---

(١) سورة النّجم ٣٦ — ٤٢ .

عن بنى إسرائيل الّذين استبدلوا الّذى هو أدنى بالّذى هو خير : « ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » إنّ اليهود باعوا أنفسهم الّتى استهوتها الشّياطين باتّباع ما تلت الشّياطين على عهد ملك سليمان من كتب السّحر والشّعوذة ، وبئس شيئًا باعوا به أنفسهم ، لأنّ أيّ شيءٍ يقبلونه ثمنًا لأنفسهم مقابل دخول هذه الأنفس النّار وبئس القرار يعتبر بئس الثّمن وبئس المقابل ، فكيف إذا كان ثمن الضّرر الّذى خيّل إليهم نفعًا والّذى أفسد عليهم حقيقة حياتهم الأولى والآخرة هو ذلك السّحر الّذى يضرّهم ولا ينفعهم لأنّ مصيرهم إلى النّار وبئس القرار بسبب تعلّمهم له وعملهم به ؟ إنّ من يبيع نفسه بهذا الثّمن البخس يعطى أوكد الأدلّة على حقيقة جهله وعدم علمه وإن تزيّا بزىّ العلماء كأحبار اليهود ، وإن خيّل إليه أنّه عالم ، لأنّه يعلم علمًا غير نافع بل هو علم ضارّ . وليس العلم الخليق بهذا الاسم سوى العلم النّافع . وحينما كان علم اليهود ليس نافعًا بل كان ضارًّا خالص الضّرر عبّر عنهم بما يفيد أنّهم قومٌ لا يعلمون . وليت القوم أدركوا هذه الأبعاد النّائية لحقيقة العلم . إنّهم لو كانوا على وعيٍ وإدراكٍ للعلم الحقيقىّ لهجروا السّحر والشّعوذة ، واتّبعوا التّوراة الّتى تأمرهم باتّباع الرّسول النّبىّ الأمّى محمّد ﷺ . وبما أنّ القوم بعيدون عن فهم حقيقة العلم ، وبما أنّ العلم بما هو ضارٌّ بمنزلة عدم العلم أى الجهل ، كتعلّم السّحر والعمل به ، نفت الآية الكريمة عن القوم العلم أصلاً .

الآيــة رقــم (١٠٣)

قال تعالى : ﴿ ولو أنّهم آمنوا واتّقوا لمثوبةٌ من عند الله خيرٌ لو كانوا يعلمون ﴾ .

ولو أنّهم : الضّمير فى أنّهم لليهود أو الّذين يعلمون السّحر قولان[1] والمثوبة : الثّواب[2] ويقول الطّبرىّ[3] : « والمثوبة فى كلام العرب مصدر من قول القائل : أثبتك

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٣٥ .

(٢) تفسير القرطبى ص ٤٤٦ والبحر المحيط ١ / ٣٣٥ وتفسير الطّبرىّ ١ / ٣٧٣ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٧٢ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٨٣ .

إثابة وثوابًا ومثوبة . فأصل ذلك من ثاب إليك الشّىء بمعنى رجع . ثمّ يقال : أثبته إليك أى رجعته إليك ورددته فكان معنى إثابة الرّجلِ الرّجلَ على الهديّة وغيرها إرجاعه إليه[١] منها بدلاً وردّه عليه منها عوضًا . ثمّ جعل كلّ معوّضٍ غيره من عمله أو هديّته أو يَدٍ له سلفت منه إليه مثيبًا له . ومنه ثواب الله عزّ وجلّ عباده على أعمالهم ، بمعنى إعطائه إيّاهم العوض والجزاء عليه حتّى يرجع إليهم بدلٌ من عملهم الّذى عملوا له » .

ومثوبة جواب ولو أنّهم آمنوا ، عند قوم . وقال الأخفش سعيد : ليس للو هنا جوابٌ فى اللّفظ ولكن فى المعنى . والمعنى لأثيبوا[٢] واللاّم من « لمثوبةٌ » عند الأخفش للابتداء[٣] .

خير . يقول أبو حيّان[٤] : « وليس خير هنا أفعل تفضيل ، بل هى للتفضيل لا للأفضليّة كقوله : أفمن يُلْقى فى النّار خير ، وخيرٌ مستقرّا ، فشرّ كما لخير كما الفداء » .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ بنى إسرائيل الّذين نبذوا كتاب الله تعالى وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون قد اتّبعوا ما تتلو الشّياطين على ملك سليمان عليه السّلام من كتب السّحر والشّعوذة وتعلّموا ما يضرّهم ولا ينفعهم وعلموا أنّ من استبدل السّحر الّذى هو أدنى بالكتاب السّماوىّ الّذى هو خير ليس له فى الآخرة خظٌّ من الجنّة ولا نصيبٌ من الخير ، وفى هذا شىءٌ كبيرٌ من الإنذار للقوم والتّرهيب والوعيد . وعلى عادة القرآن الكريم المتشابه المثانى فى التّحوّل من الشّىء إلى ضدّه ، من المعنى إلى نقيضه ، يتمّ التّحوّل فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها إلى التّبشير للقوم والتّرغيب والوعد . فلو أنّ بنى إسرائيل الّذين بدّلوا نعمة الله تعالى كفرًا وجحدوا آلاء الله تعالى عليهم الّتى لا تُحْصى كانوا قد آمنوا واتّقوا لأثيبوا . ونستطيع أن نفهم معنى الإيمان فى الآية الكريمة بأبعاده المختلفة ، فى ضوء معرفتنا لمعنى الكفر فى الآية الكريمة السّابقة بأبعاده المختلفة وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكنّ الشّياطين كفروا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما يعلّمان من أحدٍ

---

(١) فى الأصل : إليها .

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٤٦ وانظر معانى القرآن للأخفش ١ / ١٤٢ .

(٣) معانى القرآن ١ / ١٤٢ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٣٣٥ .

حتّى يقولا إنّما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ . فمن متعلّقات الإيمان رعاية النّعمة والشّكر لله تعالى ، المعبود بحقٍّ وحده لا شريك له ، على آلائه الجسيمة . ولا تكتفى الآية الكريمة بالإيمان وحده ، إنّما ترشد إلى قمّته وتشحذ الهمم من أجل الوصول إلى منتهاه ألا وهو التّقوى « ولو أنّهم آمنوا واتّقوا » وهذا الاهتمام بالتّقوى الّتى هى الوجه الآخر للإحسان بمعنى أن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، يقذف بأذهاننا إلى صفة التّقوى الّتى هى إحدى سمات المؤمنين فى مثل قوله فى أوّل السّورة الكريمة : ﴿ الـم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين ﴾ فالآية الكريمة تطلب من بنى إسرائيل أن يمثّلوا أعلى درجات الإيمان ، ألا وهى درجة التّقوى . وإنّما يتحقّق لهم بإذن الله تعالى ذلك حينما يهجرون السّحر ويطبّقون تعاليم التّوراة الّتى تأمرهم باتّباع الرّسول النّبىّ الأمّىّ محمدّ بن عبد الله ﷺ . وبذلك يؤتى القوم أجرهم مرّتين على نحو ما نصّت على ذلك الآيات الكريمات من سورة القصص وهى تتحدّث عن مؤمنى أهل الكتاب . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ الّذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتْلى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيّئةَ وممّا رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾ .

إنّ القوم الّذين كفروا لو أنّهم آمنوا واتّقوا لأثابهم الله تعالى وكافأهم جزاء إيمانهم وتقواهم . وإنّ القول فى الآية الكريمة : ﴿ لمثوبةٌ من عند الله ﴾ يذكّر بالقول فى الآية الكريمة قبل السّابقة : ﴿ ولمّا جاءهم رسولٌ من عند الله ﴾ والفضل الّذى يجىء من الله تعالى ليس له حدود . وإنّ المثّوبة من عند الله تعالى لتوصف بأنّها خير . وكيف لا تكون خيرًا وهى فضلٌ من الله سبحانه وتعالى كفاء الإيمان والعمل الصّالح . وصفة الخير هذه قادرةٌ على القذف إلى أذهاننا فى حقّ شياطين الجنّ والإنس الّذين يعلّمون السّحر ويتعلمونه بصفة الشّرّ المقابلة . إنّه بقدر الخير الخالص من الله سبحانه وتعالى يكون الشّرّ المحض من الشّيطان الرّجيم .

---

(١) سورة القصص ٥٢ ــ ٥٥ .

ويفهم من هذا القول فى الآية الكريمة : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ عدم علم القوم ، كما يفهم من استعمال « لو » حال القوم السّيّئة الّتى يتمنّى معها النّاصح الشّفيق أن يتحوّل القوم من تلك الحال ، إلى الحال الحسنة المقابلة ، من حال الجهل إلى حال العلم ، من حال الكفر إلى حال الإيمان ، من حال الشّقاء والعذاب إلى حال السّعادة والثّواب .

وهكذا يتبيّن طريق الخير الّذى يعبّده لكلّ عباد الله تعالى الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . إنّ الآية الكريمة تتجاوز الإرشاد إلى الإيمان المجرّد إلى التّقوى الّتى هى رفيع درجات الإيمان .

« وقد استدلّ بقوله : ولو أنّهم آمنوا واتّقوا ، من ذهب إلى تكفير السّاحر كما هو روايةٌ عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السّلف . وقيل : بل لا يكفر ولكن حدّه ضرب عنقه لما رواه الشّافعىّ وأحمد بن حنبل قالا : أخبرنا سفيان هو ابن عيينة عن عمرو بن دينار أنّه سمع بجلة بن عبدة يقول : كتب عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أن اقتلوا كلّ ساحرٍ وساحرة . قال : فقتلنا ثلاث سواحر . وقد أخرجه البخارىّ فى صحيحه أيضًا . وهكذا صحّ أنّ حفصة أمّ المؤمنين سحرتها جاريةٌ لها فأمرت بها فقتلت . قال الإمام أحمد بن حنبل : صحّ عن ثلاثةٍ من أصحاب النّبىّ ﷺ فى قتل السّاحر »[1] .

« مسألة : وهل يَسْأَلُ السّاحِرَ حلاًّ لسحره ؟ فأجازه سعيد بن المسيِّب فيما نقله عنه البخارىّ . وقال عامر الشّعبىّ لا بأس بالنُّشرة[2] وكره ذلك الحسن البصرىّ . وفى الصّحيح عن عائشة أنّها قالت يا رسول الله هلاّ تنشّرت ؟ فقال : أمّا الله فقد شفانى وخشيت أن أفتح على النّاس شرًّا .... قلت : أنفع ما يستعمل لإذهاب السّحر ما أنزل الله على رسوله فى إذهاب ذلك وهما المعوّذتان . وفى الحديث : لم يتعوّذ المتعوّذ بمثلهما ، وكذلك قراءة آية الكرسى فإنّها مَطْرَدة[3] للشيطان »[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٤٤ .

(٢) النُّشرة بالضّمّ : رُقْيَةٌ يعالَجُ بها المجنون والمريض .

(٣) المطردة بفتح الميم : ما يدعو إلى الطّرد .

(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١٤٨ .

الآيــة رقــم (١٠٤)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا ، وللكافرين عذابٌ أليم » .

سبب النّزول .

« قال ابن عبّاس : كان المسلمون يقولون للنّبيّ ﷺ : راعنا على جهة الطّلب والرّغبة من المراعاة ، أى التفت إلينا . وكان هذا بلسان اليهود سبًّا أى اسمع لا سمعت ، فاغتنموها وقالوا : كنّا نسبّه سرًّا فالآن نسبّه جهرًا ، فكانوا يخاطبون بها النبىّ ﷺ ويضحكون فيما بينهم ، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم فقال لليهود : عليكم لعنة الله ! لئن سمعتها من رجلٍ منكم يقولها للنّبىّ ﷺ لأضربنّ عنقه فقالوا : أو لستم تقولونها ؟ فنزلت الآية ونهوا عنها لئلاّ تقتدى بها اليهود فى اللّفظ وتقصد المعنى الفاسد »[1] .

الحقيقة أنّ هذه الآية الكريمة ذات علاقةٍ وثيقةٍ بالآية الكريمة السّادسة والأربعين من سورة النّساء المرتبطة باليهود المبيّنة المفصّلة لما أجملت آية سورة البقرة . قال تعالى[2] : ﴿ من الّذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمَعٍ وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنًا فى الّدين ، ولو أنّهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانْظُرنا لكان خيرًا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلا ﴾ .

فآية سورة النّساء تذكر اليهود بصريح اللّفظ وتبيّن أنّهم يحرّفون كلام الله تعالى المتمثّل فى التّوراة عن مواضعه ويصرفونه عن وجهه ومن ذلك نعته ﷺ وفى خطابهم للمصطفى ﷺ يقولون كلامًا لظاهره معنًى حسن ، كالمعنى الظّاهر والقريب وغير الّذى يقصده اليهود من القول على لسانهم : « واسمع غير مسمع » إذ المعنى اسمع غير صاغر ولا ذليل[3] بينما لباطن هذا الكلام معنًى سيّئ يقصده اليهود . وهذا المعنى : اسمع

---

(١) تفسير القرطبى ص ٤٤٧ وانظر البحر المحيط ١ / ٣٣٨ وتفسير الطّبرى ١ / ٣٧٤ .

(٢) سورة النّساء ٤٦ (٣) انظر تفسير الطّبرى ١ / ٣٧٥ .

لا سمعت[1] إنّ المعنى الحسن لا يريده اليهود . والمعروف أنّ الشّخص المفخّم المبجّل لا يُسْمِعُه غيُره ما يسوؤه . وإنّ المعنى السّيّئ هو الّذى يريده اليهود ، لأنّ الشّخص الميّت لا يَسْمَع شيئًا ، حسنًا ولا سيّئًا ، وهذه الحال هى الّتى يتمنّاها اليهود ، عليهم لعائن الله تعالى ، للمصطفى ﷺ .

وقد اتّخذ اليهود من لحن القول على لسانهم فى آية سورة النساء : « واسمع غير مُسْمَع » توطئةً للحن القول الآخر وذلك فى القول على لسانهم « وراعنا » والمعروف أنّ هذه الجملة هى الّتى جاءت فى آية سورة البقرة والّتى نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن مخاطبة المصطفى ﷺ بها رغم قصدهم المعنى الحسن وذلك من أجل سدّ الذّرائع ومنع اليهود عن استعمالها فى مخاطبة المصطفى ﷺ وهم الّذين يريدون معناها الآخر السّيّئ .

إنّ اليهود لا يجرءون على مخاطبة المصطفى ﷺ بها منفردين ، لأنّهم على علمٍ بأنّ الأنصار بخاصّةٍ ، على علمٍ بمعناها السّيّئ الّذى يريدون ، وهم يجرءون على مخاطبة المصطفى ﷺ بها اقتداءً بالمؤمنين الّذين يريدون معناها الحسن فى مخاطبته ﷺ بها فيحاكيهم اليهود موهمين أنّهم هم كذلك يريدون معناها الحسن لا السّيّئ . وقد فضحهم الله تعالى على رءوس الأشهاد وأظهر المخبوء من سوء نيّاتهم وطويّاتهم .

لقد بيّنت آية سورة النّساء أنّ اليهود إنّما يحرّفون الكلام بقولهم ويطعنون فى دين الإسلام ، كما عيّنت البديل الصّحيح للقول لو كانوا حسنى النيّة والطّويّة . وقرّرت الباعث لهم على تحريف الكلم عن مواضعه ، إنّه الكفر الّذى استحقّوا من أجله لعنة الله تعالى .

إنّ القول على لسانهم المرغوب عنه هو : ﴿ سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ﴾ .

وإنّ القول المرغوب فيه هو : ﴿ سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا ﴾ .

لقد عرفنا معنى القول ﴿ واسمع غير مسمع ﴾ وإنّ معنى القول ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ سمعنا قولك وعصينا أمرك ، وهو بعكس المطلوب منهم أن يقولوا ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾

---

(١) انظر تفسير القرطبىّ ص ٤٤٧ والبحر المحيط ١ / ٣٣٩ .

ويبقى وراء ذلك الرّغبة فى معرفة الجملتين اللّتين جاءتا كذلك فى آية سورة البقرة ﴿ راعنا ﴾ ﴿ وانظرنا ﴾ ويتبيّن من الآيتين الكريمتين أنّ جملة ﴿ راعنا ﴾ مرغوبٌ عنها . وأنّ جملة ﴿ انظرنا ﴾ مرغوبٌ فيها . فلنتحول إلى الحديث عن آية سورة البقرة وفيها هاتان الجملتان ولنبدأ بجملة ﴿ راعنا ﴾ الّتى ابتدأت بها الآية الكريمة ونهت عن استعمالها .

لقد عرفنا من سبب النّزول أنّ لجملة راعنا معنيين اثنين ، أحدهما سيّئ هو الّذى يريده اليهود وهو المرغوب عنه . وآخرها حسن هو الّذى يريده المؤمنون ، ومن باب سدّ الذّرائع نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن استعمال هذا القول أساسًا فى مخاطبتهم له ﷺ . وبما أنّ الخطاب متّجه فى الآية الكريمة إلى المؤمنين فما هو معنى الجملة الحسن الّذى يريدونه ؟ وما هو بعد ذلك معنى الجملة السّيّئ الّذى يريده اليهود ؟

وقبل أن نتبيّن المعنى الّذى يريده المؤمنون المتّقون من خطابهم المصطفى ﷺ بالقول ﴿ راعنا ﴾ نودّ أن نتبيّن أنّ هذا الخطاب فى الآية الكريمة بالقول : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ﴾ هو « أوّل خطاب خوطب به المؤمنون فى هذه السّورة بالنّداء الدّالّ على الإقبال عليهم ، وذلك أنّ أوّل نداءٍ جاء أتى عامًّا : يا أيّها النّاس اعبدوا ربّكم . وثانى نداءٍ أتى خاصًّا : يا بنى إسرائيل اذكروا . وهى الطّائفة العظيمة الّتى اشتملت على الملّتين اليهوديّة والنّصرانيّة . وثالث نداء لأمّة محمّد ﷺ المؤمنين .

..... والخطاب بيا أيّها الّذين آمنوا متوجّه إلى من بالمدينة من المؤمنين »[1] .

فإذا حاولنا أن نقف على المعنى الّذى يريده المؤمنون من القول له ﷺ ﴿ راعنا ﴾ واستشرنا المعاجم اللّغويّة استطعنا أن نفهم أنّ معنى ﴿ راعنا ﴾ استمع إلينا وأَصْغِ إلى ما نقول وفرّغ سمعك لكلامنا . جاء فى لسان العرب[2] : « وأَرْعِنى سَمْعَكَ وراعنى سمعك أى استمع إلىّ . وأَرْعَى إليه : استَمَع . وأَرْعَيْتُ فلانًا سمعى إذا استمعت إلى ما يقول وأصغيت إليه . ويقال : فلانٌ لا يُرْعِى إلى قول أحدٍ أى لا يلتفتُ إلى أحد . وقوله تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ﴾ ، قال الفرّاء : هو

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٣٨ (٢) ﴿ رعى ﴾ .

من الإرعاء والمراعاة ، وقال الأخفش : هو فاعِلْنا من المراعاة على معنى أَرْعِنا سمعك ولكنّ الياء ذهبتْ للأمر ..... وقيل : كان المسلمون يقولون للنّبىّ ﷺ : راعنا ، وكانت اليهود تَسابُّ بهذه الكلمة بينها ، وكانوا يسبّون النّبىّ عليه السّلام فى نفوسهم ، فلمّا سمعوا هذه الكلمة اغتنموا أن يظهروا سبّه بلفظ يُسْمَع ولا يلحقهم فى ظاهره شىء ، فأظهر الله النّبىّ ﷺ والمسلمين على ذلك ونَهَى عن الكلمة » . ويقول القرطبىّ[1] : « ذكر شيئًا آخر من جهالات اليهود . والمقصود نهى المسلمين عن مثل ذلك . وحقيقة راعنا فى اللّغة أَرْعِنا ولنرعك لأنّ المفاعلة من اثنين ، فتكون من رعاك الله أى احفظنا ولنحفظك وارقبنا ولنرقبك . ويجوز أن يكون من أَرْعِنا سمعك أى فرّغ سمعك لكلامنا . وفى المخاطبة بهذا جفاء ، فأمر المؤمنين أن يتخيّروا من الألفاظ أحسنها ومن المعانى أرقّها » « لا تقولوا راعنا : نهىٌ يقتضى التّحريم »[2] .

أما وقد عرفنا المعنى الحسن الّذى يريده المؤمنون فى مخاطبتهم له ﷺ بالقول ﴿راعنا﴾ فما هو المعنى السّيّئ الّذى يريده اليهود والّذى من أجله نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن استعمال هذا القول فى مخاطبته عليه الصّلاة والسّلام من باب سدّ الذّرائع ؟

باستشارة معاجم اللّغة وكتب التّفسير يتبيّن أنّ ثمّة معنًى سيّئًا يريده اليهود من القول ﴿ راعنا ﴾ وهذا المعنى السّيّئ يتضمّنه هذا القول من باب ميل اليهود إلى لحن القول ، وإلى التّورية ، وإلى استعمالهم أقوالاً لها معنيان ظاهر حسنٌ غير مقصود ، وباطنٌ سيّئٌ مقصود . فما هو هذا المعنى السّيّئ البعيد الّذى يقصده اليهود ؟ ومن أين أتى هذا المعنى السّيّئ إلى القول : ﴿ راعنا ﴾ هل أتى هذا المعنى لانحرافهم بالمعنى وتضمينهم هذا القول معنًى سيئًا آخر يفيده قولٌ عربىّ آخر ؟ أم أنّ المعنى السّيّئ أتى لموافقة القول « راعنا » ذى المعنى الحسن قولاً آخر بلغة اليهود ذا معنًى سيّئ ؟

الحقيقة أنّ العلماء مجمعون على أنّ اليهود يريدون معنًى سيّئًا من قولهم له ﷺ ﴿ راعنا ﴾ وهم وراء ذلك مختلفون حول مصدر هذا المعنى السّيّئ . أمِنْ أجل تضمين اليهود القول ﴿ راعنا ﴾ معنًى سيّئا يفيده قولٌ عربّى قريبٌ فى النّطق منه ؟ أمْ أنّ مصدر

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٤٧ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٤٩ .

هذا المعنى السّيّئ موافقة القول : ﴿ راعنا ﴾ لفظًا ومعنى قولاً بلغة اليهود ؟ .

فَلْنُصْغِ إلى بعض ما يقول العلماء فى هذا الشّأن . يقول السّيوطىّ(١) : « أخرج أبو نعيم فى دلائل النّبوّة عن ابن عبّاس قال : راعنا سبٌّ بلسان اليهود » ويقول القرطبىّ(٢) : « قال ابن عبّاس : كان المسلمون يقولون للنّبىّ ﷺ : راعنا على جهة الطّلب والرّغبة من المراعاة ، أى التفت إلينا ، وكان هذا بلسان اليهود سبًّا أى اسمع لا سمعت » ويقول الرّاغب(٣) : « قال تعالى : ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾ وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنًا فى الدّين . كان ذلك قولاً يقولونه للنّبىّ ﷺ على سبيل التّهكّم يَقْصِدون به رَمْيَه بالرُّعونة ويوهمون أنّهم يقولون راعِنا أى احْفَظْنَا ، مِنْ قولهم رَعُنَ الرّجُل يرعَنْ رَعَنًا فهو رَعِنٌ وأَرْعنُ وامرأةٌ رعناء . وتسميته بذلك لميلٍ فيه تشبيهًا بالرّعْن أى أنفِ الجبل لما فيه من الميل » ويقول ابن فارس(٤) : « الرّاء والعين والنّون أصلان : أحدهما يدلّ على تقدّمٍ فى شيٍ ، والآخر يدلّ على هَوَجٍ واضطراب(٥) فالأوّل الرَّعْن : الأنف النّادر من الجبل .... ويقال جيشٌ أرعن ، إذا كانت له فضولٌ كرعون الجبال والأصل الآخر قولهم : أرعَنُ : مُسْتَرْخ . قالوا : هو من رَعَنَتْهُ الشّمس إذا آلمت دماغه . يقال من ذلك : رجلٌ مرعون . ويقال : رَعُنَ الرّجل يَرْعُن رَعَنًا ، فهو أرعن ، أى أهوج ، والمرأة الرَّعناء . فأمّا قوله جلّ ثناؤه : لا تقولوا راعِنا . فهى كلمةٌ كانت اليهود تتسابُّ بها ، وهو من الأرعن » ويقول ابن منظور(٦) : ﴿ الأرعن : الأهوج فى مَنْطِقِه المسترخى . والرُّعونة : الحُمْق والاسترخاء . رجلٌ أرعن وامرأةٌ رعْناء بيّنا الرُّعونه والرَّعَنِ أيضًا . وما أرْعَنَه ، وقد رَعُن بالضّمّ يرعُن رُعونةً ورَعَنًا . وقوله تعالى : لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ، قيل : هى كلمةٌ كانوا يذهبون بها إلى سبّ النّبىّ ﷺ ، اشتقّوه من الرّعونة . قال ثعلب : إنّما نهى الله تعالى

---

(١) الإتقان ٢ / ١٣٢ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٤٧ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ١٩٨ (٤) معجم مقاييس اللّغة « رعن » ٢ / ٤٠٧ .

(٥) يصحّ أن نعتبر الأصلين أصلاً واحدًا إذا ذهبنا إلى ما ارتآه صاحب اللسان « رعن » فى القول : « ويقال : الجيش الأرعن هو المضطرب لكثرته » وإلى ما ارتآه الرّاغب من كون أنف الجبل إنّما سمّى « أرعن » بسبب ميله والمَيْل نوعٌ من الهَوَج .

(٦) لسان العرب « رعن » وانظر معانى القرآن للفرّاء ١ / ٦٩ .

عن ذلك لأنّ اليهود كانت تقول للنّبى ﷺ : راعنا أو راعونا ، وهو من كلامهم سبّ ، فأنزل الله تعالى : لا تقولوا راعنا وقولوا مكانها انظُرنا . قال ابن سيدة : وعندى أنّ فى لغة اليهود راعونا على هذه الصّيغة ، يريدون الرُّعونة أو الأُرْعَن » ويقول أبو حيّان(١): « وقيل : كانت لليهود كلمة عبرانيّةٌ أو سريانيّة يتسابّون بها وهى راعينا ، فلمّا سمعوا بقول المؤمنين راعنا اقترضوه وخاطبوا بها رسول الله ﷺ وهم يعنون تلك المسبّة ، فنهى المؤمنون عنها وأمروا بما هو فى معناها » .

وقولوا انظرنا : من النّظر(٢) أمروا أن يخاطبوه ﷺ بالإجلال . والمعنى أقبل علينا وانظر إلينا(٣) واتّسع فى الفعل فعدّى بنفسه وأصله أن يتعدّى بإلى كما قال الشّاعر :

ظاهرات الجمال والحسن ينظر ن كما ينظر الأراكَ الظّباء

يريد إلى الأراك ومعناه تفقّدنا بنظرك(٤) وقال مجاهد : المعنى فهّمنا وبيّن لنا(٥) وقيل : من النَّظِرة وهى التّأخير ، أى انتظرنا وتأنّ علينا نحو قوله :

فإنّكما إن تنظراني ساعةً من الدّهر تنفعنى لدى أمّ جندب(٦)

قال ابن عطيّة : وهذه لفظة مخلصةٌ لتعظيم النّبىّ ﷺ . والظّاهر عندى استدعاء نظر العين المقترن بتدبّر الحال . وهذا هو معنى راعنا . فبّدلت للمؤمنين اللّفظة ليزول تعلّق اليهود . انتهى(٧) ويقول الطبرىّ(٨) : « وقولوا انظرنا ، وقولوا أيّها المؤمنون لنبيّكم ﷺ انظرنا وارقبنا نفهم ونتبيّن ما تقولُ لنا وتعلّمُنا » .

تبيّنّا أنّ الآية الكريمة ذات علاقةٍ وثيقةٍ بالآية الكريمة السّادسة والأربعين من سورة النّساء الّتى تفصّل مجملها وتبيّن معناها وتقرّر الباعث لليهود على ارتكاب حماقاتهم فى لحن

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٣٩ وانظر الكلام العظيم للطّبرىّ فى هذا الشّأن تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٧٥ و ٣٧٦ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٣٣٩ (٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٠ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٣٣٩ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٤٥٠ .

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٠ .

(٦) البحر المحيط ١ / ٣٣٩ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٤٥٠ ومعانى القرآن للفرّاء ١ / ٧٠ .

(٧) البحر المحيط ١ / ٣٣٩ (٨) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٧٧ .

القول . قال تعالى[١] : ﴿ من الّذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمَعٍ وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنًا فى الدّين ولو أنّهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرًا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلا ﴾ .

وفى الآية الكريمة دليلٌ على وجوب التّمسّك بسدّ الذّرائع . فها هى ذى تنهى المؤمنين عن أن يقولوا شيئًا معيّنًا ، ليس لأنّ هذا الشىء فى ذاته ممنوع وهم الّذين يريدون معناه الحسن ولا علم لهم بمعناه الآخر السّيّئ أساسًا ، ولكن لأنّ فى قول المؤمنين له تشجيعًا لكفّار اليهود على أن يقولوه وهم إنّما يريدون المعنى الآخر السّيّئ . والآية الكريمة تبدأ بالنّهى ، وهو فى العادة أسهل من الأمر الّذى أخّرته الآية الكريمة . وإنّما كان النّهى أسهل لأنّه ترك . وإنّما كان الأمر أصعب لأنّه فعل . وقد كان النّهى بمثابة التّوطئة للأمر والاستئناس به[٢] .

وسبق أن عرفنا أنّنا بصدد أوّل خطابٍ فى السّورة الكريمة للمؤمنين ، وتبدو أهمّيّة الشّأن المنهىّ عنه والمأمور به من هذه الأوّليّة فى الخطاب . فالمؤمنون تنهاهم الآية الكريمة نهى تحريم[٣] عن أن يقولوا ﴿ راعنا ﴾ وهم الّذين يريدون المعنى الحسن أى أرْعِنا سمعك وأصغ إلينا . وحينما يكون من النّبىّ ﷺ إصغاءٌ لهم ، فذلك معناه أنّه عليه الصّلاة والسّلام مقبلٌ عليهم بكلّ اهتمامه ، حريصٌ على كلّ ما فيه خيرهم وصلاحهم وهو الرّءوف الرّحيم بالمؤمنين . والآية الكريمة تضع البديل الصّحيح الّذى ينبغى أن يخاطبوا به النّبىّ ﷺ والّذى يدلّ على ذات المعنى الحسن الّذى يريده المؤمنون بقولهم له عليه الصّلاة والسّلام ﴿ راعنا ﴾ وهذا القول هو ﴿ انظرنا ﴾ الّذى يمتاز بكون اليهود فى إرغامهم على استعماله اقتداءً بالمؤمنين لن يستطيعوا أن يحرّفوه عن موضعه ، ولا أن يصرفوا معناه عن مجراه الصّحيح ، ولا أن يمارسوا عن طريق استعماله لحن القول الّذى لصق بهم ومهروا فيه وتجلّى فيه خبثهم .

ومن البيّن أنّ معنى القول : ﴿ انظرنا ﴾ انظر إلينا . وحينما يكون منه ﷺ نظرٌ إلى

---

(١) سورة النّساء ٤٦ .

(٢) انظر هنا البحر المحيط ١ / ٣٣٨ .

(٣) انظر تفسير القرطبىّ ص ٤٤٩ .

المؤمنين فذلك معناه إقباله عليه الصّلاة والسّلام عليهم وإصغاؤه لهم ورعايته مصالحهم وهو ﷺ الرّءوف الرّحيم بالمؤمنين . وهكذا يتبيّن أنّ القول ﴿ انظرنا ﴾ ذا العلاقة بالعين المبصرة الرّاعية للمصالح يؤدّى ذات المعنى الّذى يؤدّيه القول : ﴿ راعنا ﴾ ذو العلاقة بالأذن الواعية . وفرق بين القولين أنّ كفّار اليهود عليهم لعائن الله لن يستطيعوا أن يصرفوا القول : ﴿ انظرنا ﴾ عن معناه القريب الحسن ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين باستعماله هو بالذّات ، بينما يستطيع كفّار اليهود أن يستعملوا القول : ﴿ راعنا ﴾ اقتداءً بالمؤمنين ، وأن يصرفوا هذا القول عن معناه القريب الحسن إلى المعنى البعيد السّيّئ الّذى إليه يقصدون وله يتعمّدون . وسبق أن عرفنا أنّ اليهود يريدون المعنى السّيّئ البعيد الّذى يُفيده القول : ﴿ راعنا ﴾ عن طريق تضمين هذا القول معنى الرّعونة بمعنى الهَوَج والطّيش ، أو عن طريق اتّفاق هذا القول مصادفةً مع قولٍ لليهود يفيد المعنى البعيد السّيّئ الّذى يريده اليهود والّذى يجتهدون فى البحث عنه واصطياده « وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنّهم كانوا إذا سلّموا إنّما يقولون : السّام عليكم . والسّام هو الموت . ولهذا أُمِرْنا أن نردّ عليهم بـ : وعليكم . وإنّما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا . والغرض أنّ الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً »[1] .

ولا تكتفى الآية الكريمة بطرح البديل الصّحيح للقول الّذى ينبغى على المؤمنين أن يستعملوه ، والّذى يفهم منه إقبال المصطفى ﷺ عليهم بنظره وبصره وبصيرته وسمعه وقلبه ، إنّما تتجاوزه إلى أمرهم بأن يكون منهم فى المقابل السّمع التّامّ للمصطفى ﷺ والطّاعة المطلقة له عليه الصّلاة والسّلام فى كلّ ما يأمرهم به وينهاهم عنه وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿ وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب ﴾ .

وتقرّر الآية الكريمة فى تذييلها : ﴿ وللكافرين عذابٌ أليم ﴾ أنّ للكافرين نعم الله تعالى وآلاءه عذابًا أليمًا فى الدّنيا والآخرة ، ككافرى اليهود الّذين يقولون راعنا

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٤٨ .

(٢) سورة الحشر ٧ .

ولا يقولون انظرنا ، والّذين يقولون اسمع غير مسمع ، وسمعنا وعصينا ولا يقولون سمعنا وأطعنا على نحو ما فصّلت آية سورة النّساء . وقد استنتج القرطبيّ من الآية الكريمة دليلين اثنين . يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[1] : « فى هذه الآية دليلان أحدهما على تجنّب الألفاظ المحتملة الّتى فيها التّعريض للتّنقيص والغضّ .....

الدّليل الثّانى : التّمسّك بسدّ الذّرائع وحمايتها وهو مذهب مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل فى روايةٍ عنه ، وقد دلّ على هذا الأصل الكتاب والسّنّة . والذّريعة عبارةٌ عن أمرٍ غير ممنوعٍ لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع فى ممنوع . أمّا الكتاب فهذه الآية . ووجه التّمسّك بها أنّ اليهود كانوا يقولون ذلك . وهى سبٌّ بلغتهم فلمّا علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللّفظ لأنّه ذريعةٌ للسّبّ . وقوله تعالى : ﴿ ولا تسبّوا الّذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدوًا بغير علم ﴾ . فمنع من سبّ آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك . وقوله تعالى : ﴿ واسألهم عن القرية الّتى كانت حاضرة البحر ﴾ . الآية فحرّم عليهم تبارك وتعالى الصّيد فى يوم السّبت فكانت الحيتان تأتى يوم السّبت شرّعًا أى ظاهرة . فسدّوا عليها يوم السّبت وأخذوها يوم الأحد . وكان السّدّ ذريعةً للاصطياد . فمسخهم الله قردةً وخنازير ، وذكر الله لنا ذلك فى معنى التّحذير عن ذلك . وقوله تعالى لآدم وحوّاء : ولا تقربا هذه الشّجرة .....

وأمّا السّنّة فأحاديث كثيرة ثابتة صحيحة منها حديث عائشة رضى الله عنها أنّ أمّ حبيبة وأمّ سلمة رضى الله عنهنّ ذكرتا كنيسةً رأياها بالحبشة ، فيها تصاوير ، لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : إنّ أولئك إذا كان فيهم الرّجل الصّالح فمات بنوا على قبره مسجدًا وصوّروا فيه تلك الصّورة ، أولئك شرار الخلق عند الله . أخرجه البخارى ومسلم . قال علماؤنا : تفعل ذلك أوائلهم ليتآنسوا برؤية تلك الصّور ويتذكّروا أحوالهم الصّالحة فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عزّ وجلّ عند قبورهم . فمضت لهم بذلك أزمان ثمّ إنّهم خلف من بعدهم خلوفٌ جهلوا أغراضهم ووسوس لهم الشّيطان أنّ آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصّور فعبدوها فحذّر النّبىّ ﷺ عن مثل ذلك ، وشدّد

---

(١) تفسير القرطبيّ ص ٤٤٧ .